

أشعب
ملك الطفيليين

توفيق الحكيم



توفيق الحكيم



الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه



كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

١ ــ محمد ﷺ (سيرة حوارية)	١٩٣٦
٢ ــ عودة الروح (رواية)	١٩٣٣
٣ ــ أهل الكهف (مسرحية)	١٩٣٣
٤ ــ شهر زاد (مسرحية)	١٩٣٤
٥ ــ يوميات نائب فى الأرياف (رواية)	١٩٣٧
٦ ــ عصفور من الشرق (رواية)	١٩٣٨
٧ ــ تحت شمس الفكر (مقالات)	١٩٣٨
٨ ــ أشعب (رواية)	١٩٣٨
٩ ــ عهد الشيطان (قصص فلسفية)	١٩٣٨
١٠ ــ حمارى قال لى (مقالات)	١٩٣٨
١١ ــ براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية)	١٩٣٩
١٢ ــ راقصة المعبد (روايات قصيرة)	١٩٣٩
١٣ ــ نشيد الأنشاد (كما فى التوراة)	١٩٤٠
١٤ ــ حمار الحكيم (رواية)	١٩٤٠
١٥ ــ سلطان الظلام (قصص سياسية)	١٩٤١
١٦ ــ من البرج العاجى (مقالات قصيرة)	١٩٤١
١٧ ــ تحت المصباح الأخضر (مقالات)	١٩٤٢
١٨ ــ بجماليون (مسرحية)	١٩٤٢
١٩ ــ سليمان الحكيم (مسرحية)	١٩٤٣
٢٠ ــ زهرة العمر (سيرة ذاتية ــ رسائل)	١٩٤٣
٢١ ــ الرباط المقدس (رواية)	١٩٤٤

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لييننجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيبان — ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شيء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان ـــ لندن .

الشهيـــد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزيـــة) جمع محمـــــود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعـات الجامعـة الأمريكيـة بالقاهرة ـــ ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى ونـدر ونشر دار ماكملان ـــ لندن .



مقـــدمة ..

الأدب العربى القديم من أعرق الآداب وأبرعها فى رسم الأشخاص وتصوير الطبائع . وما من عجب فى ذلك ، فهذا الأدب وليد حضارة ذكية خلاقة . إنما العجب هو أن يبقى أكثر آثاره وكنوزه بعيدا عن متناول العالم الغربى الذى رشف من نبع الإغريق والرومان ..

أغلب الظن أن علة ذلك ترجع إلى اختلاف النظرة إلى الجمال الفنى عند العرب والغرب . فالعرب يرون الفن الأعلى فى الإيجاز ، أى التركيز ، فى حين أن الغرب يرى الفن الأغنى فى الإطناب أى التحليل .. وكان من أثر الإيجاز أن اكتفى العرب فى رسم شخصية أو تصوير طبع بنادرة تروى أو حادثة تذكر أو بيت من الشعر ينظم ، فيجدون فى ذلك متعتهم وبغيتهم .. بينما الغرب لا يكتفى باللمحة الخاطفة ولا تشبعه النادرة العابرة ، فهو يريد اللوحة الكاملة ذات الحوادث المتصلة .

والنظرتان إلى الفن صحيحتان . فللإيجاز جماله وقوته .. وهو يفترض فى المتذوق له ذكاء وفطنة وتصورا وعلما ، فيبصر الكثير من خلال القليل ، ويلمح الصورة التامة من وراء الجزء المقتضب .. فن يبدعه منشئ بارع .. لقارئ بارع يتباريان فى ميدانه ، منتضيين أسلحة متكافئة من الذوق والفهم ..

كما أن للتحليل أيضا مزاياه .. فهو يفترض فى المتذوق له خلو الذهن أو قصور الخيال .. فيرى من واجبه أن يعاونه ويكون فى خدمته ، وأن يحتال بالإسهاب والتفصيل ليعلم من لا يعلم .. فيجتذب من الناس عديدا ينشر فيهم دعوته ويبلغهم رسالته ..

* * *

لو استطعنا أن نوفق بين النظريتين ، ونجمع بين الفنين .. لكانت النتيجة أتم والفائدة أعم ..

وهذا ما أخذت به نفسى حين وضعت هذا الكتاب فى عام ١٩٣٨ فى ذلك الإطار الذى يظهرنا على صورة من المجتمع العربى فى ذلك العصر ، نكاد نلمس لها وشائج قربى بما نراه اليوم فى بعض أحياء مدننا وعادات مجتمعنا ..

فالمالك والمستأجر وما بينهما من علاقة .. والمنازل ومرافقها ، والسوق وحركتها ، والولائم ومراسمها ، والحمام وزبائنه ، والحلاق وطباعه .. كل تلك الصور عن الحياة الاجتماعية كما بدت من الأدب العربى القديم ، قد راقتنى فيما راقنى من طبائع وأشخاص رأيت أن أبرزها إلى جانب شخصية « أشعب » .. ذلك الراصد للموائد والطعوم كما يرصد الفلكى الكواكب والنجوم .. وأشهد أنى ما رأيت قط فى أدب من الآداب صورة لطفيلى أدق من صورته .. فتتبعت آثاره وتنسمت أخباره ، وطفقت أجمع نوادره من كتب الأقدمين .. وأمزجها وأخلطها وأطبخها .. على حد تعبيرى فى بيان الطبعة الأولى .. إذ قلت يومئذ : « ما دمنا فى صدد المعدة » — أعنى معدة أشعب — فلأبين

للناس كيف طبخت لهم هذا اللون من ألوان الأدب . لقد استحضرت اللحم والبقل والتوابل والأبازير من حوانيت أربعة مشاهير : « الجاحظ » و« ابن عبد ربه » و« الخطيب البغدادى » و« بديع الزمان » . فقد بهرنى حقا وأسال لعابى ما وجدته لديهم من اللذائذ والطرائف . غير أنى وجدت كل هذا مبعثرا ضمن بضاعتهم ، وملقى على غير نظام ، حتى وقع الملح على السكر . كما وجدت أكثر هذه الأشياء شائعة مكررة بنصها وتفصيلها عند الأربعة ، كل يضعها من حانوته نفس الوضع ، ويعرضها عين العرض . فملأت يدى مما تخيرت من أطايبها وذهبت به إلى « مطبخ » فنى ، حيث مزجته وخلطته وجعلت منه « عجينة » واحدة ، صنعت منها هذه القصة المتصلة الفصول ...

توفيق الحكيم

أشعب وجاريته رشا ..

انتصف النهار ، وصاح مؤذن الظهر ، لا من مسجد ذلك الحى من أحياء « المدينة » ، لكن من بطن « أشعب » : أشهر الطفيليين فى عصره ، وأظرفهم حديثا ، وأقبحهم وجها ، وأزراهم هيئة ، وأجملهم صوتا وأحذقهم فى فنون الغناء

وكان جالسا إلى معشوقته « رشا » من أول النهار ، يحادثها ويضاحكها ويطارحها الغناء منشدا :

دموع عينى لها انبساط ونوم عينى به انقباض

وكانت الحسناء متكئة على فراش من ديباج أخضر ، فى دارها الصغيرة ، أمام بستان قد أزهر بنبت الربيع . فأجابته مترنمة ، والسحر والفتنة يكادان ينطقان فى عينيها :

هذا قليل لمن دهته بلحظها الأعين المراض

فتنهد العاشق ورفع عقيرته :

فهل لمولاتى عطف قلب أو للذى فى الحشا انقراض ؟

فأجابته الجميلة فى ابتسامها الفاتن ، ولفظها العذب وصوتها الرخيم :

إن كنت تبغى الوداد منا فالود فى ديننا قراض

فتنهد أشعب هذه المرة تنهدا طويلا ، وأرسل بصره إلى النافذة ، .

ورأى ميل الشمس ، فتململ والتفت يمنة ويسرة ، [illegible] الحسناء صاحبة الدار :

ــ ما لى لا أسمع للطعام ذكرا !؟

فتغير وجه الجميلة وقالت :

ــ سبحان الله ! أما تستحى يا شيخ ؟ أما فى وجهى من الحسن ما يشغلك عن هذا ؟!

فسكت أشعب كالخجل . ثم جعل ينظر إلى وجهها وعينيها متمسكا بأهداب الصبر والقناعة .

فقالت له :

ــ امض فى غنائك ، فإنك حسن الغناء . أسمعنى صوتا لم أسمعه من قبل . ما هو أحسن الغناء عندك ؟

فأجاب أشعب بغير تردد :

ــ هو نشيش المقلى !

فقالت له فى شيء من الامتعاض والتأنيب :

ــ أهذا كلام يقال فى مثل هذا الموقف الذى نحن فيه ؟

ــ صدقت .. لقد كان يجمل بى أن أتحدث عن الحب الذى فى الحشا !

وأمسك بالعود مرة أخرى ..

فأسرعت الجارية تقول :

ــ نعم ، صف لى ما فى الحشا من الحب .

فنظر إليها العاشق مليا وقال :

ـــ وماذا كنت أصنع إذن منذ الصباح ؟

ـــ زد فى الوصف .

ـــ وصف ماذا ؟..

ـــ ما فى الحشا من الهوى .

ـــ من « الهوا » .. هذا والله صحيح .

ورفع العاشق عقيرته بالغناء :

إذا كان فى بطنى طعام ذكرتها
وإن جعلت يوما لم تكن لى على ذكر

ويزداد حبى إن شبعت تجددا
وإن جعت غابت عن فؤادى وعن فكرى

* * *

ولم تر الجارية مع صاحبها هذا حيلة ، فقامت تهيئ له الطعام . ولم تمض ساعة حتى فاز أشعب ببغيته الحقيقية ووضع أمامه الخوان . وكان هذا العاشق الولهان إذا أكل ذهب عقله وجحظت عينه وسكر وسدر وانبهر ، وتربد وجهه ، ولم يسمع ولم يبصر . فتناول القصعة وهى كجمجمة الثور فأخذ يحضنها ، وما زال ينهشها طولا وعرضا ورفعا وخفضا ، لا يفصل تمرة قط عن تمرة ولا يرمى بنواة قط ولا ينزع قمعا ولا ينفى عنه قشرا ولا يفتشه مخافة السوس والدود . فلما رأت صاحبته ما يعتريه وما يعترى الطعام منه ، لم تزد على أن همست كالمخاطبة لنفسها :

ـــ هذا والله هو العشق !

ثم نظرت إليه ، وقد انتقل إلى ألوان أخرى من الطعام جعل يخاطبها قبل أن يمد إليها يده :

ـــ بارك الله فيك من « فالوذج » صاف يقرأ نقش الدرهم من تحتك ! بارك الله فيك من ثريدة ملساء كأنها خد الحبيب ! بارك الله فيك من خبز رقاق كأنها آذان الفيلة !

وهجم بيديه كأنه طالب ثأر ، فابتدرته الجارية قائلة :

ـــ أتحبنى ؟

فلم يجب ، ولم يلتفت إليها ، ولم يبد عليه أنه سمع منها شيئا . ومضى فى التهامه ومضغه . فتوسلت إليه أن يتكلم فصاح متبرما :

ـــ أما سمعت قول من قال : « إذا كنت على مائدة فلا تتكلمن فى حال أكلك ، وإن كلمك من لا بد من جوابه فلا تجيبه إلا بقول نعم ، فإن الكلام يشغل عن الأكل ، وقول « نعم » مضغة ..

فضحكت القينة . ثم قالت :

ـــ ولكنك لم تجبنى حتى بقول « نعم » .

فنظر إليها وفمه ممتلئ نظرة من يسألها عما قالت ، فقد نسى ، فأجابت :

ـــ سألتك « أتحبنى » ؟

فلم يلفظ حرفا ، وأين له الفم الذى يلفظ شيئا ؟

فسكتت الجارية لحظة ، ثم رأت أن تحتال عليه وتحرجه فقالت :

ـــ أتحب أبا بكر الصديق ؟

فبلع لقمة وشرب جرعة من ماء ، ونظر إليها نظرة المعتذر المشغول

عن الجواب ، غير أنها مضت فى تضييق الخناق عليه :

ـــ أتحب عمر بن الخطاب ؟

وصادف العاشق فترة فراغ بين لقمة ولقمة ، فأجابها على عجل ويده مسرعة إلى الخوان :

ـــ ما ترك الطعام فى قلبى حبا لأحد !

* * *

قام أشعب عن الخوان الذى كان ، وهو يتجشأ ويقول لصاحبته :

ـــ جعلت فداك ما أكرمك ! إذا كان غدا فاصنعى لى هريسة ، فأنت أحذق بها .

فقالت له باسمة :

ـــ إنك لشديد النسيان . أما تذكر أنك من أيام قد تشهيت على « هريسة » فبعثت بها إليك ؟

فصاح العاشق طربا :

ـــ نعم .. فإنى أتشهى عليك إذن « لوزينج » رق قشره واشتدت عذوبته ، غريقا فى سكر ودهن لوز .. يشد فؤاد الحزين ويرد نفس الشجين : ابعثى لى به غدا أصلحك الله ، مع شىء من النبيذ وما يصلحه .

فقالت :

ـــ أنسيت أنى بعثت إليك منذ ليال هذا اللوزينج وهذا النبيذ !

فقال :

ـــ إذن فإنى أشتهى ، حفظك الله وأبقاك ، ثريدة دكناء من الفلفل ،

رقطاء من الحمص ، ذات جناحين من اللحم فأضرب فيها كما يضرب الولى السوء فى مال اليتيم .

فصمتت الجارية لحظة ، ثم نظرت إلى أشعب مليا وقالت كالمخاطبة لنفسها ، ساخرة :

ـــ أبقاك الله وحفظك ، رأينا الحب يكون فى القلب ، وحبك ليس يجاوز المعدة !

ـــ لم أسمع منك ! ماذا قلت ؟

ـــ لا شيء ! أخبرنى أنت .. أين دارك ولماذا لم تدعنى يوما إلى طعامك ؟

فنظر إليها أشعب نظرة الجزع والذعر :

ـــ دارى ؟ أما علمت أنى أسكن عند الكندى !

ـــ ومن الكندى ؟

ـــ هو أبخل أهل الأرض طراً ، وهل يستطيع ساكن أو جار أن يصنع طعاماً دون أن يبعث إلى صاحب الدار بطبق . إنه لا يزال يقول للساكن وربما للجار : « إن فى الدار امرأة حبلى ، وإن الوحمى ربما أسقطت من ريح القدور الطيبة ، فإذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة . فإن لم تفعلوا ذلك بعد إعلامى إياكم فكفارتكم إن أسقطت غرة عبد أو أمة » ، فكان بذلك ربما يوافى منزله من قصاع السكان والجيران ما يكفيه الأيام . فيأكل هو وعياله ويقول لهم : « أنتم أحسن حالًا من أرباب هذه القصاع . فلكل بيت منهم لون واحد وعندكم ألوان » ، فهل تريدين أصلحك الله ، أن أدعوك إلى دار مثل هذا الرجل ؟

فضحكت وقالت :

ـــ أفقير هو ؟

ـــ إنه أغنى أهل المدينة !

ـــ ولكنى أريد أن أموت وآكل من طعامك !

فتفكر العاشق قليلا ثم أجاب :

ـــ مهلا سيدتى .. سأدعوك إن شاء الله إلى طعام وشراب وغناء ..

ـــ متى ؟

ـــ يوم يحين وقت ذلك .

ثم أسرع فاستوى قائما ومد إليها يده مودعا ، فمدت إليه يدا صغيرة كأنها حلية من عاج ، فلمح فى إصبعها خاتما ، فاستبقى يدها فى يده وقال فى صوت يسيل رقة ولطفا :

ـــ سيدتى جعلت فداك ! ناولينى هذا الخاتم الذى فى إصبعك لأذكرك به .

فسحبت يدها فى رفق وتضاحكت فى خبث وقالت :

ـــ إنه ذهب وأخاف أن تذهب .

ثم أسرعت فالتقطت من الأرض عودا يابسا سقط عن شجرة قرب النافذة وأعطته إياه قائلة :

ـــ ولكن خذ هذا العود لعلك تعود !

أشعب والكندى البخيل ..

جاء العصر وأشعب يتسكع فى الأسواق إلى أن انتهى به المطاف أمام بستان من بساتين الكندى . فوقف وأرسل بصره ، فوجد صاحبه جالسا تحت شجرة على ماء جار وسط خضرة ، وقد بسط بين يديه منديلًا فيه لحم سكباج بارد وقطع جبن وزيتونات وصرة فيها ملح وأخرى فيها أربع بيضات . فاقترب منه ومر به مسلما عليه . فرد الكندى السلام قائلا :

ـــ هلم عافاك الله .

وإذا أشعب أسرع من خطف البرق فى صحن السماء قد انثنى راجعا يريد أن يعدى جدول الماء . فصاح به الكندى وهو يأكل :

ـــ مكانك .. فإن العجلة من عمل الشيطان ..

فوقف أشعب مأخوذاً .. فسأله الكندى :

ـــ تريد ماذا ؟

فأجاب أشعب :

ـــ أتريد أن أتغدى ..؟!

فحملق فيه الكندى قائلا :

ـــ ولم ذلك ؟ وكيف طمعت فى هذا ؟ ومن أباح لك مالى ؟

فقال أشعب :

ـــ أوَلست قد دعوتنى ؟

فأجاب الكندى :

ـــ ويلك ! لو ظننت أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام . ماذا كان بيننا غير سلام ورد سلام ، أى كلام بكلام ، ولكنك تريد أن يكون كلام بفعال . وقول بأكل ، فهذا ليس من الإنصاف .

وازدرد الرجل بيضة مما بين يديه . وجعل أشعب ينظر إليه لحظة ثم قال له :

ـــ لقد رأيتك تأكل وحدك .

فبلع الكندى ريقه ثم قال :

ـــ ليس علىّ فى هذا الموضع مسألة . إنما المسألة على من أكل مع الجماعة ، لأن ذلك هو التكلف . وأكلى وحدى هو الأصل . وأكلى مع غيرى زيادة فى الأصل . وإذا كانت الوحدة خيرا من جليس السوء . فإن جليس السوء خير من أكيل السوء . لأن كل أكيل جليس . وليس كل جليس أكيلا !

فقال أشعب متخابثا :

ـــ إنما أردت أن أؤاكلك لأسخيك وأنفى عنك اسم البخل ..

فأجاب الكندى وهو يلقى فى حلقه زيتونة :

ـــ لا أعدمنى الله هذا الاسم .. فإنه لا يقال فلان بخيل إلا وهو ذو مال ، فسلم إلى المال وادعنى بأى اسم شئت .

فقال أشعب :

ـــ ولا يقال أيضا فلان سخى إلا وهو ذو مال . فقد جمع هذا الاسم

الحمد والمال ، أما اسم البخل فقد جمع المال والذم . فأنت قد اخترت أخسهما وأوضعهما

فقال الكندى :

ـــ بينهما فرق ..

فقال أشعب :

ـــ ما هو ؟..

فأجاب الكندى :

ـــ فى قولهم بخيل تثبيت لإقامة المال فى ملكه . وفى قولهم سخى إخبار عن خروج المال من ملكه . فالبخل اسم فيه ذم ولكنّ فيه حفظاً ، والسخاء اسم فيه حمد ولكن فيه تضييعاً . والمال حقيقة ومنفعة وحيازته قوة ، أما الحمد فهو ربح وسخرية والاستماع له ضعف ! وماذا ينفع الحمد إذا جاع البطن وعرى الجلد وضاع العيال وشمت الحساد ؟!

وظل يأكل ، وأشعب ينظر إليه ، حانقا فى دخيلة نفسه على هذا اللؤم ، الذى لا تنفع فيه حيلة . غير أنه تلطف له ودنا منه قائلًا :

ـــ وما عليك لو جلست إليك ساعة أغنيك حتى تطرب وأضحكك حتى يزول عنك هذا القطوب .

فصاح الكندى :

ـــ لا أريد أن أطرب الساعة ولا أن أضحك .

ـــ وماذا يمنعك من ذلك ؟

ـــ يمنعنى منه أن الإنسان أقرب ما يكون من البذل والعطاء إذا طرب وضحك .

فأسقط فى يد أشعب ولم يدر من أى مدخل يدخل إلى هذا الرجل ، وهو كلما فتح له باباً أغلقه . ولم يقنط أشعب من ذلك . وخطر له خاطر أعجبه . فأسرع يقول لصاحبه :

— لقد ظفرت لك بساكن جديد ، رضى أن ينزل دارك الخالية وقبل دفع الأجر وقضاء الحوائج والوفاء بالشرط ...

فأبرقت أسرة الرجل ووضع اللقمة من يده وقال :

— وأين هو .. عافاك الله ؟

— إذا رأيت أن أدعوه ...

— متى ؟

— الليلة إلى عشائك .

— عشائى !

وعاد إلى قطوبه ، فأراد أشعب أن يهون عليه الخطب فقال له :

— لا تتكلف شيئاً لهذا الضيف ، إنه يرضى بما حضر فأسرع الكندى يقول :

— ليس يحضر شىء ، وقولك « بما حضر » معناه أنه لا بد من أن يقع على شىء .

فقال أشعب :

— قطعة مالح ...

— وقطعة مالح أليست هى شيئاً ؟

— نكتفى بالشرب إذن على الريق .

— لو كان عندنا نبيذ كنا فى عرس .

ـــ أنا أحضر النبيذ .

فقال الكندى على الفور :

ـــ إذا صرت إلى إحضار النبيذ فأحضر أيضاً ما يصلح للنبيذ ..

فقال أشعب :

ـــ ليس يمنعنى والله من ذلك ومن إحضار النقل والريحان إلا أن أحسب أنا صاحب الدعوة وليس يجوز ذلك ، إلا أن يكون لك فيها أثر .

ففكر الكندى لحظة ، ثم صاح كمن وجد الفرج :

ـــ لقد انفتح لى باب : لكم فيه صلاح وليس علىّ فيه فساد .

والتفت إلى نخلة عالية ملساء كأنها ثعبان قائمة فى طرف من أطراف البستان وقال :

ـــ فى هذه النخلة زوج يمام ولهما فرخان مدركان ، وإن نحن وجدنا إنساناً يصعدها ، ولم يطيرا ، فهما قد صارا ناهضين ، جعلنا الواحد « طباهجة » والآخر « كردجا » فكان نعم العشاء ، فهل لك يا أشعب فى صعود هذه النخلة ؟

فنظر أشعب إلى النخلة وقد كاد رأسها يمس السحاب ، وصاح :

ـــ هذه لا تصعد ولا يرتقى عليها إلا إذا كان اليوم عمرى ، وأردت من ذلك دك عنقى ، اللهم أغننى عنك وعن طعامك يا شيخ !

* * *

وأراد أن ينصرف يائسا ، ولكنه فكر فى أمر عشائه وليس فى المدينة الليلة وليمة ولا عرس ينسل إليه ، فعاد إلى النخلة ، فرأى مرة أخرى أن علوها الشاهق يملأ النفس رعبا ، وأدرك أن صعودها لا يقدم عليه إلا من

طلب الموت ، فأخبر الكندى أن يعفيه وأن يطلب فى الجيران إنساناً يصعدها ، فسألوا الجيران فلم يقبل أحد أن يفعل ذلك ، ودلهم بعض الناس آخر الأمر على أكار تلك حرفته ، فما زال الرسول يطلبه حتى وقع عليه ، فلما جاء ونظر إلى النخلة تردد هو أيضاً ، فما زالوا به يشجعونه ويغرونه حتى استخار الله وارتقى النخلة ، فلما صار فى أعلاها طار أحد الفرخين ، فأنزل الآخر وسلمه إلى الكندى ، ووقف يتصبب عرقا فى انتظار الأجر ، فأخرج الكندى « فلسا » وضعه فى يد الأكار فنظر إليه مليا ثم أراه للحاضرين من الجيران والمشاهدين ، فقالوا جميعا :

ـــ فلسا بعد هذا الجهد كله ، وهو غنى !.. لو كان أعطى درهما على الأقل ، إنه ذو مال !

فالتفت إليهم الكندى صائحا :

ـــ إننى لم أجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم !

وأشاح بوجهه عنهم والتفت إلى أشعب قائلًا :

ـــ الآن قد ظفرنا بالعشاء ، فابعث لنا فى طلب صاحبك الساكن الجديد .

فنظر أشعب إليه شذرا :

ـــ فرخ يمام واحد ، هو « الطباهج » و« الكردناج » وهو كل العشاء ؟!

ففكر الكندى لحظة ثم قال :

ـــ انتظر ، لا تبرح .

وأشار إلى الأكار الواقف يتميز غيظا ، فترضاه وأغراه وذهب به ،

وغبرا مليا ، ثم عادا يحملان أرزاً بقشره ، وليس معهما شيء مما خلق الله إلا ذلك الأرز . فلما صار الكندى إلى بستانه كلف الأكار أن يجشه فى مجشة له ، ثم ذراه ، ثم غربله ، ثم جش الواش منه . إلى أن فرغ الأكار من ذلك كله فكلفه الكندى أن يطحنه على ثوره وفى رحاه ، حتى فرغ من طحنه . فكلفه أن يغلى له الماء وأن يحتطب له وأن يعجنه بالماء الحار لأنه به أكثر نزلا ، ثم كلف الأكار أن يخبزه . ثم طلب إلى أشعب وبعض الحاضرين من صبية الجيران أن ينصبوا له فى الجدول الشصوص وأن يسكروا الدرياجة على صغار السمك لا تدخل السولقى ، وأن يدخلوا أيديهم فى حجرة الشلالى ، حتى يصيبوا من السمك شيئا يجعل كبابا على نار الخبز تحت الطابق فلا يحتاج من الحطب إلى كثير . ما زال أشعب منذ ذلك العصر إلى الليل فى كد وجوع وانتظار إلى أن أذن الله بالفرج وفرغ من أداء نصيبه من العمل ، وجاء الخبر من بيت الكندى أن اليمامة التى كان قد بعث بها لتطبخ « طباهجا » قد نضجت ، فصاح الكندى فى صيحة الظافر :

— يا أشعب ! هلموا إلى عشائى ، وهنيئاً مريئاً لكم طعامى . فأحضر صاحبك إلى دارى تجدوا الخوان قد نصب كأنه إيوان كسرى وعرش هرقل !

* * *

جرى أشعب إلى صديق له من طرازه يدعى « بنان » فقص عليه الأمر وتوسل إليه أن يأتى معه إلى دار الكندى فيظهر له أنه الساكن المنتظر حتى يبرأ أشعب من وعده .. فإذا انتهى العشاء ، وعاين الصديق الدار

كان له أن يتعلل ويتمنع ويبدى الرفض ويطلب الفسخ ، ولم يكن عند « بنان » فى تلك الليلة ما يعتق به هو أيضًا . فما علم أن العشاء مضمون حتى خرج من داره الخالية لوقته مع أشعب .. وسارا فى الطريق فأوصاه أشعب أن يفهم الكندى أول الأمر أنه قابل الكراء وقضاء الحوائج والوفاء بالشرط .

فالتفت « بنان » إلى صاحبه قائلًا :

— قد فهمت دفع الكراء وقضاء الحوائج فما معنى الوفاء بالشرط ؟

فأجاب أشعب :

— فى شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة ، وبعر الشاة ، ونشوار العلوفة ، وأن لا يخرجوا عظما ولا يخرجوا كساحة ، وأن يكون له نوى التمر وقشور الرمان ، وغرفة من كل طبخة لمن يزعم أنها حبلى فى بيته .

* * *

أقبل الضيفان على دار الكندى فألفياه قد أعد الخوان وجلس فى انتظارهما يتلمظ ويقول :

ومـن البليـة فى الموائـد أن يرى
قوم جيـاع فى انتظـار القـادم

فقعد أشعب على الفور أمام الطعام وأجلس زميله جواره وهو يقول :

سواء علينـا أقدمـوا أم تأخـروا
نوافى مع الطبـاخ ساعـة يغـرف

وأشار إلى صاحبه « بنان » بعد أن غمزه بكوعه :

ـــ لقد انتظرت صاحبى هذا انتظار الآكل للشبع ! فقال الكندى .

ـــ انتظرته إذن قليلًا ؟

فأجاب بنان على الفوْر :

ـــ نعم ، لقد انتظرنى مقدار ما يأكل إنسان رغيفاً !

وتناول الخبز . فقال الكندى : لقد انتظرك إذن طويلًا .

ولم يلتفت الضيفان إلى صاحب الدار ولم يجيباه بعد ذلك . وأشعب وبنان إذا تقابلا على خوان لم يكن لأحد معهما حظ فى الطيبات ، فما جاءت القصعة فيها الثريدة كهيئة الصومعة مكللة بتلك اليمامة المعهودة ، حتى أخذ أشعب الذى يستقبله ثم أخذ ما عن يمينه وأخذ ما بين يدى صاحب الدار ثم مال على جانبه الأيسر فصنع مثل ذلك ، وعارضه زميله بنان وحاكاه .

فلما أن نظر الكندى إلى الثريدة مكشوفة القاع مسلوبة عارية ، والفرخ كله بين يدى أشعب وزميله إلا قطعة جناح صغيرة بين يديه ، تناولها فوضعها أمام الضيف الجديد واحتسب بها فى سبيل الكرامة والبر والضيافة ، وهو يتميز ويقول ليخفى غيظه الكظيم :

ـــ قال الحكماء : « عليكم بشرب الماء على الغداء » فلو شرب الناس الماء على الطعام ما أتخموا . وذلك أن الرجل لا يعرف مقدار ما أكل حتى ينال من الماء ، وربما كان شبعان وهو لا يدرى ..

فقال بنان :

ـــ شبعان ! والله نحن إنما نسمع بالشبع سماعاً من أفواه الناس ! ثم مد يده إلى الخبز . فغمزه أشعب هامساً :

ـــ تمهل وتحشم ، حتى لا يفطن إلينا ويفر منا .. أنت لا تعرفه ، لأن يطعن طاعن فى الإسلام أهون عليه من أن يطعن فى الرغيف الثانى !

فسحب بنان يده ، وهو يهمس فى أذن أشعب :

ـــ أوَيريد أن يكون بين الرغيف والرغيف فترة نبى ؟

ولحظهما الكندى وظن أنهما يتساران فى أمر الخبز ويستصغران حجمه .. فأمسك برغيف ورطله فى يده وقال :

ـــ يقولون إن خبزى صغير ! فمن الزانى ابن الزانية الذى يستطيع أكل رغيفين منه !

فبهت بنان ، وأراد أن يفتح فاه ، وإذا بالباب قد فتح عليهم ودخل جار للكندى ، قرأ الجميع السلام وهم يأكلون فردوا عليه ، ولم يعرض الكندى عليه الطعام ، فاستحيا أشعب من الرجل وهو جاره فى السكن ، فما تمالك أن قال له :

ـــ سبحان الله ! لو دنوت فأصبت معنا مما نأكل. فتأدب الرجل وقال حياء :

ـــ قد والله فعلت .

فأسرع الكندى يقول :

ـــ ما بعد القسم بالله شيء .

فكتف الرجل بذلك كتفاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً ، وتركه فى مكانه لا يريم . ولو مد الرجل يده بعد ذلك وأكل لشهد عليه بالكفر . ورأى الرجل دقة موقفه فتحرك منصرفاً خجلًا . فرق له أشعب وقال له :

ـــ أين تريد ؟

فقال الرجل :

ـــ إلى منزلى أتوضأ .

فقال له أشعب :

ـــ ولماذا لا تتوضأ ها هنا ؟ فإن الكنيف خال نظيف ، والغلام فارغ نشيط ، وليس من الكندى حشمة ، ومنزله منزل إخوانه .

فدخل الرجل فتوضأ . والكندى ينفخ من الغيظ .

ولحظه أشعب فقال له :

ـــ هون عليك . إنما كل بغيتى أن أسخيك وأنفى عنك التبخيل وسوء الظن .

فقال الكندى :

ـــ فهمنا أن تدعو الناس إلى غدائى لتسخينى ، ولكن لا أفهم أن تدعوهم ليخرءوا عندى .

وعاد الرجل فجلس عن كثب وأخرج من جيبه رقعة قدمها إلى الكندى قائلاً :

ـــ جاءتنى رقعتك اليوم وفيها أنك تزيد علىّ أجر الدار خمستين ، لأن ابن عمى ومعه ابن له قد نزلا علىّ ضيفين !

فأجاب الكندى على الفور :

ـــ نعم ، إذا كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك ، وإن كان إطماع السكان فى الليلة الواحدة يجر علينا الطمع فى ليال كثيرة .

فقال الرجل :

ــ ليس مقامهما عندنا إلا شهراً أو نحوه .

فقال الكندى :

ــ إن دارك بثلاثين درهم وأنتم ستة ، أى لكل رأس خمسة ، فأما وقد زدتم رأسين فلا بد من زيادة خمستين . فالدار عليك من يومك هذا بأربعين .

فقال الساكن متعجباً :

ــ وما يضرك من مقامهما وثقل أبدانهما على أنا دونك . ما هو إذن عذرك لأعرفه ؟

فترك الكندى الأكل واتجه إلى ساكنه قائلًا :

ــ عذرى واضح كالنهار . والخصال التي تدعو إلى ذلك كثيرة . وهى قائمة معروفة : من ذلك سرعة امتلاء البالوعة وما فى تنقيتها من شدة المؤونة . ومن ذلك أن الأقدام إذا كثرت ، كثر المشى على ظهور السطوح ، والصعود على الدرج ، فينقشر الجص وينكسر العتب ، وإذا كثر الدخول والخروج والفتح والإغلاق وجذب الأقفال ، تهشمت الأبواب وتقلعت الرزات . فساكن الدار هو المتمتع بها والمنتفع بمرافقها وهو الذى يبلى جدتها ويذهب عمرها بسوء تدبيره ، وأنه ينسى أن المالك ما أسكن داره إلا بعد أن كسحها ونظفها لتحسن فى عين المستأجر ، فإذا خرج هو ترك فيها مزبلة وخراباً لا تصلحه إلا النفقة الموجعة ، ثم لا يدع بعد ذلك مترساً إلا سرقه ، ولا سلماً إلا حمله ، وإذا أراد الدق فى الهون ترك الصخرة المجعولة لذلك ودق على الأجذاع حيث جلس تهاوناً

وقسوة وغشاً . هذا فضلاً عما يحدثه من الشغب مع الجيران والتعرض لهم واصطياد طيورهم وتعريضنا لشكاياتهم . فإذا أردنا أن نجعل الغرم بالغنم ، وأن نطلب بضعة دراهم لإصلاح الفساد المنتظر سمعنا عبارات الاحتجاج وطولبنا بإبداء الأعذار والأسباب !

وسكت الكندى فجأة ، فقد كانت منه التفاتة إلى الضيفين ، فوجدهما قد انتهزا فرصة اشتغاله بالكلام وأمعنا هما فى محو أثر الخبز والسمك ، إلا « شبوطه » كان قد نجح فى وضعها بين يديه ، وكان قد أكبر أمرها لسمنها وكبرها ولشدة شهوته لها ، وكان قد ظن عند نفسه أنه قد خلا بها وتفرد بأطايبها ، فما كاد يحسر عن ذراعيه ويتصدى لها حتى هجمت يد أشعب عليها ، فلما رأى هذه اليد فى السمكة رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف وأيقن بالشر وعلم أنه قد ابتلى ، ولم يلبث أشعب حتى قبض على قفا الشبوطة فانتزع الجانبين جميعاً واكتسح ما على الوجهين . فلما أكل أشعب جميع أطايبها وبقى الكندى فى النظارة ، ولم يبق فى يده مما كان يأمله فى تلك السمكة إلا الغيظ الشديد ، بينما هو يرى أشعب يفرى الفرى ويلتهم التهاما صاح به :

— حسبك حتى لا يقتلك الطعام !

فأجاب أشعب وفمه ممتلئ :

— إذا كان الأجل موقوتاً ، فلأن أموت شبعاً أحب إلىّ من أن أموت جوعاً !

وقنط الكندى من الأكل مع هذين الرجلين ، فانصرف إلى الحديث مع جاره الساكن واتفق معه على الزيادة فى الكراء كما طلب ، وشيعه إلى

الباب ثم عاد إلى الضيفين فوجدهما قد قاما عن المائدة ولم يبق عليها شيء يؤكل . وبنان يتجشأ ويقول :

ـــ لعن الله « القدرية » .. من كان يستطيع أن يصرفنى عن أكل هذا الطعام ، وقد كان فى اللوح المحفوظ أنى سآكله !

فكظم الكندى غيظه وقال فى نفسه :

ـــ تعال غداً فإن وجدت شيئا فالعن « القدرية » والعن آباءهم وأمهاتهم !

وجلس الضيفان بعد أن غسلا أيديهما يتخللان من الطعام ، وهما على خير ما يكون الإنسان راحة وهناء . وجعل الكندى ينظر إلى خوانه منتهك الحرمة ، عليه بقايا العظام والأشواك كأنها جثث القتلى بعد المعركة ، فساورته الهموم وتحركت فيه غريزة البخل ، وشعر بالكرب والغم . فما تمالك نفسه ، وأقبل عليهما يقول فى نبرة المتوسل :

ـــ أسألكما بالله الذى لا شيء أعظم منه ، أنا الساعة أيسر وأغنى ، أو قبل أن تأكلوا طعامى ؟

فقالا معاً :

ـــ ما نشك أنك حين كنت والطعام فى ملكك كنت أغنى وأيسر .

قال :

ـــ فأنا الساعة أقرب إلى الفقر أم تلك الساعة ؟

قالا :

ـــ بل أنت الساعة أقرب إلى الفقر .

فلم يحتمل الكارثة ، وصاح فى نبرة ألم وندم وغضب :

— آه ! من ذا الذى يلومنى إذن على ترك دعوة قوم قربونى من الفقر وباعدونى من الغنى ، وكلما دعوتهم أكثر كنت من الفقر أقرب ؟!

فرأى أشعب الخطر والضرر كله فى ترك هذا الرجل على هذه العقيدة فأسرع يقول له :

— ولكن قد فاتك أمر : إنك الليلة إنما تنفق اليسير لتجنى الكثير . ما هذا الطعام القليل النفقة الخفيف المؤونة إلى جانب ما سوف تتقاضاه من هذا الساكن الجديد كراء لدارك الخالية ؟ أما كنت تقول الساعة أن الغرم بالغنم ؟!... فأنت والله فى آخر الأمر الغانم الرابح !

فتفكر الكندى لحظة وبدا عليه الاقتناع ، فاطمأن فى الحال قلبه وانفرجت أساريره وضحك للمرة الأولى ضحكة الارتياح .. وقال :

— إذن فادع لى !

فرفع أشعب يديه إلى السماء وقال :

— من الله عليك بصحة الجسم وبسطة اليد وسعة الصدر وكثرة الأكل ونقاء المعدة ، وأمتعك بضرس طحون ومعدة هضوم ، مع السعة والدعة والأمن والعافية !.. هذه دعوة مغفول عنها !

جعل أشعب وبنان يدللان الكندى ويفكهانه ولم يشكا أنه سيدعو إليهما تلك الليلة بنبيذ فيملآن بيته إلى الفجر نزهة ونشوة ، ولكن الكندى جعل يتغافل ويتناوم . فلمح له أشعب بما يصبو إليه قائلًا :

— إن المجلس والله .. ليس فيه غناء ولا نبيذ فهو كالبيت الخرب !

فلم يسمع لكلامه صدى . وطال تغافل الكندى فلم يجد أشعب بدا من التصريح . فأقبل عليه يقول :

ــ اجعلها مرة ليس لها أخت .. ودعوة لن تعود إلى مثلها .. واضحك واطرب ليلة فى العمر بقليل من نبيذ !

ولما بلغ منه ومنهما المجهود ورأى الكندى أنهما مقيمان مصران ، غير منصرفين قبل أن يظفرا منه بما طمعا فيه ، قام فأحضر لهما قربة نبيذ مع أكواب ووضعهما بين يدى أشعب وقال له :

ــ الآن غن واطربنى والأمر الله !

فانقض أشعب وبنان على الكؤوس . وشرب بنان شرب العطشان الصادى . وأفرغ أشعب كأسه فى جوفه وهو يرفع عقيرته منشداً :

امــدح الكــأس ومــن أبدعهــا
واهــج قومــاً قتلونــا بالعــطش
إنمــا الكــأس ربيــع باكــر
فــإذا مــا لم نذقهــا لم نعــش

فطرب الكندى للصوت ولكنه قال كالمخاطب نفسه :

ــ والله ما قتلوكم بالعطش . ولكنكم أنتم قتلتم أنفسكم بالشره .

وملأ كأسه وقال : غن أيها المغنى !

فملأ أشعب كأسه وصاح بصوته الجميل :

لا تحفلــن بقــول اللائــم اللاحــى
واشــرب على الورد من مشمولة الراح
كأســا إذا انحدرت فى حلــق شاربها
أغناك لألاؤهــا عن كــل مصبــاح

فصاح الكندى من الطرب صيحة مدوية دهت الضيفين . وأفرغ فى

حلقه كأسا أخرى وهو يقول :

اسقنـــى حتـــى تـــرانى مـــائـــلًا
وتـــرى عمـــران دينــــى قد خرب

وسكر الكندى . وأمعن أشعب فى الغناء :

ما زلت آخذ روح الـــدن من لطـــف
وأستبيـــــح دمـــــاً من غير مجروح
حتـــى انثنيت ولى روحـــان فى جسدى
والـــــدن ، مُطَّــرحٌ جسم بلا روح

فطرب الكندى ولم يدر ما يصنع من شدة الطرب ، فشق قميصه وقال لأشعب :

ـــ افعل بنفسك مثل ما فعلت بنفسى ..

فنظر إليه أشعب دهشاً .. فصاح الكندى :

ـــ ويلك ، شق أيضاً أنت قميصك !

فقال أشعب جزعاً :

ـــ أصلحك الله ! أتريد أن أشقه وليس لى غيره !

فقال الكندى : « شقه وأنا أكسوك غداً » .

فأجاب أشعب : « فأنا إذن أشقه غداً » .

فقال الكندى : « وأنا ماذا أصنع بشقك غداً ؟ » .

فقال أشعب : « وأنا ماذا أرجو من شقه الساعة ؟ »

ولبثا فى ذلك وقتا يتساومان ، وبنان ينظر إليهما ويعجب وأخيرا صاح فى الكندى :

ـــ ما كل هذا ؟ إنى لم أسمع قط بإنسان يحاور ويناظر فى الوقت الذى إنما يشق فيه القميص من غلبة الطرب ! إذا كنت طربت الآن حقا ، فاكسه الآن القميص !

وهزت الكندى نشوة الخمر ونخزة الوهم ، فى غفلة من غريزته النائمة فقام يتعثر إلى قميص جديد عنده فأتى به وكساه أشعب . فلما صار القميص على أشعب ، خاف البدوات ، وعلم أن ذلك من هفوات السكر ، فتحين الفرص ، وأوهم الكندى أنه ذاهب لقضاء حاجة ثم مضى تواً إلى منزله بالقميص فجعله « برشكانا » لامرأته ..

ومضى من الليل أكثره وركب النوم الكندى وبنان ، وهما ما برحا فى انتظار عودة المطرب . فانطرح بنان على الأرض جاعلا فراشه البساط ومرفقته يده ، ولم يكن فى المكان غير مرفقة ومخدة . فأراد الكندى إكرام ضيفه فأخذ المخدة فرمى بها إلى بنان فأباها وردها عليه .

وأبى الكندى ، وأبى هو . ولبثا هكذا يتطارحان التأدب ويتقارضان المجاملة فى لسان متلعثم وجذع متمايل . إلى أن صاح صاحب البيت آخر الأمر :

ـــ سبحان الله ! كيف يكون أن تتوسد مرفقك وعندى فضل مخدة ؟!

فأذعن بنان وأخذها فوضعها تحت خده . ومر بعض الليل دون أن يغرق بنان فى النوم ليبس الفراش ورداءة الموضع . وظن الكندى أن الضيف قد نام . فجاء قليلًا قليلًا حتى سل المخدة من تحت رأسه . فلما رآه بنان قد مضى بها ضحك وقال : قد كنت عن هذا غنيا !

فارتبك الكندى وقال : « إنما جئت لأسوى رأسك » .

فأجاب بنان : « إنى لم أكلمك حتى وليت بالمخدة » .

فأجاب الكندى : « كنت لهذا جئت ، فلما صارت المخدة فى يدى ، نسيت ما جئت له ، والنبيذ ما علمت والله يذهب بالحفظ أجمع ! » .

وأراد الكندى أن يرد عليه المخدة . فأبى بنان ، فألح وألح . وعادت المناظرة والمحاورة والمطارحة من جديد . فلم يخلصهما منها إلا غلبة النوم الثقيل فى الهزيع الأخير من الليل . فانطرحا كأنهما حجران والمخدة عن كثب منهما منطرحة منفردة وحيدة .

وطلع النهار وأحس بنان ضرب الشمس فى وجهه فنهض ونظر حوله مذعوراً ، فأدرك ما كان فيه . ورأى الكندى ممدداً يغط على مقربة منه فأسرع إلى نعله فحمله فى يديه وانطلق إلى الطريق قبل أن يستيقظ .

وعلا النهار .. وأقبل أهل البيت ينقرون على باب الحجرة فصحا الكندى . وفرك عينيه وألقى نظرة على المكان فهم منها كل شيء ، فبحث عن الضيفين فلم يجدهما ، فصاح صيحة منكرة ووضع نعله فى قدميه وانطلق إلى مسكن أشعب فدق عليه الباب ، فخرج له فقال له :

ـــ أين الساكن ؟

ـــ لقد تركته بين يديك فأنت الذى تسأل عنه .

ـــ وأين القميص ؟

ـــ إنك قد وهبتنى إياه ..

فقال الكندى مقاطعا فى رفق مصطنع :

— أما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز ؟ فإنى أكره ألا يكون لى حمد ولا شكر ، وأن يوجه الناس هذا منى على السكر فرد علىّ القميص حتى أهبه لك صاحياً عن طيب نفس . فإنى لا أحب أن يذهب شيء من مالى باطلًا .

فلم يتحرك أشعب لهذا القول . وعلم الكندى أن مغنيه ونديمه ومستأجره لا تنطلى عليه هذه الحجج . فأقبل عليه يقول متلطفاً :

— يا أشعب ، إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشيء فرد القميص عافاك الله !

فقال أشعب مبتسماً : « إنى والله قد خفت هذا بعينه . فلم أضع جنبى إلى الأرض حتى جئت به لامرأتى . وقد زدت فى الكمين وحذفت المقاديم ، فإن أردت بعد هذا كله أن تأخذه فخذه » .

فقال الكندى على الفور :

— نعم آخذه ، لأنه يصلح لامرأتى كما يصلح لامرأتك ومد ذراعه .

فقال أشعب : « إنه عند الصباغ » .

فقال الكندى : « هاته » .

— ليس أنا أسلمته إليه .

فعلم الكندى أنه قد وقع ، ولا حيلة له ولا منفذ ولا أمل ولا رجاء ، فقال فى زفرة حارة من كبد محروقة :

— بأبى وأمى ، صدق رسول الله حيث يقول : « جمع الشر كله فى بيت وأغلق عليه ، فكان مفتاحه : السكر ! » .

أشعب وبنان

ما وافى عصر ذلك اليوم حتى جاء أشعب رسول يحمل رقعة من القينة الجميلة تستنجزه فيها الوعد ، وتخبره أنها راحلة فى الغد إلى شأن من شؤونها فى الكوفة ، وتعرض له فى ختامها بجفاء قلبه وزيف وده وتبدى له ريبتها فيما يظهره لها من الوجد . فلم يدر أشعب ما يفعل ولا كيف يجيب . فأمسك آخر الأمر بالرقعة وكتب فى ذيلها :

أنـــا والله أهـــواك ... ولكـــن ليس لى نفقـــة
فأمـــا كنت تهوينـــى ... فقـد حلت لى الصدقـــة

فذهب الرسول بهذا الرد إلى الجارية ، وخرج أشعب إلى الطريق يستنشق الهواء ويفكر فى أمر العشاء ، وإذا العشيقة قد أقبلت بعد قليل ، فما كاد يراها حتى وقف فى مكانه حائراً لا حراك به .

فسلمت عليه وقالت :

ـــ لا تخش شيئاً . إنما أتيت لأودعك قبل رحيلى غداً . والله لولا اشتغالى اليوم بإعداد حوائجى ومتاعى وإخلاء دارى لوافيتك بما تشهيت علىّ من تلك الأطعمة التى يحبها قلبك وتهيم بها معدتك !

فقال لها :

ـــ وماذا أنت صانعة فى الكوفة ؟ أذاهبة للغناء ؟

فقالت : « نعم ، إنك فيما أظن قد رضيتنى حذاقة به ومعرفة » .

فقال : « نعم ، ولكن اختلفي أيضا إلى مجمع مولى الزبير فإنه حسن الغناء ، فاعلقى من غنائه أصواتاً عشرة . فإنك والله لخليقة أن تفتنى الناسك وتخرجيه من صومعته ساجداً لك » . فقالت :

ـــ كنت أود أن أتزود منك الليلة بصوت أو صوتين.فسقط فى يد أشعب . وارتبك واشتدت حيرته فلم ير ما يصنع . وتفكر لحظة ، ثم قال فى نفسه : « ما لى إلا منزل بنان ! » ، ونظر إليها ثم قال : « اتبعينى ! » .

وسار وهو يقلب الأمر على وجوهه ، إنه لا يجهل أن وقوع طفيلى على طفيلى لا يجوز ، ولكن وجود الحسناء معه فيه العذر والحجة ، وقد يرق بنان لجمالها فيتسع صدره وتنبسط يده ويوفى الضيافة حقها . واقتربا من الباب . فاستوقفها ، ثم ذهب فنادى رفيقه فخرج إليه فقال همساً :

ـــ أكمل الخير ! معى وجه صبيح ، يعدل الدنيا بما فيها ، وقد حصل على ضيقة وعسر وإملاق .

فقال بنان على الفور :

ـــ قد شكوت أنت والله مما كدت أباديك أنا لشكواه ! غير أنه نظر إلى ناحية المرأة ورأى رشاقة قدها فقال :

ـــ ائت بها والله المستعان !

فدخلت القينة خلف أشعب ، واستقبلها بنان بالتحية ، فسفرت فإذا هو يرى وجهاً رقيقاً كأنه كوكب به عينان مملوءتان سحراً وأنف كأنه قصبة در ، وفم كأنه جرح يقطر دماً . وردت عليه التحية بلسان فصيح ، فحار بصره وذهب لبه وجل خطبه وتلجلج لسانه وتغللت

رجلاه ، ثم ثاب إليه عقله فدعاه للجلوس فى صدر المكان وسألها قائلًا :

ـــ أيتها الجارية ! إنسية أنت أم جنية ، سمائية أم أرضية ؟!

فضحكت القينة وقالت : « بل إنسية أرضية واسمى رشا » .

فسر أشعب واطمأن قلبه لما رأى من افتتان بنان ، وأنشد بصوته الرخيم وصناعته البارعة :

رشـأ لـولا ملاحتـه   خلت الدنيـا من الفتـن
كل يوم يستـرق له   حسنـه عبـدًا بلا ثمن

وأشار بإصبعه إلى بنان ، فقال بنان :

ـــ إى والله عبد بلا ثمن ، لو سمحت بذلك سيدتى !

فابتسمت له الجارية ابتسامة طار لها لبه فقال :

ـــ إنك والله لتختلسين الأرواح بحلاوة ابتسامتك وتذهلين الألباب ببراعة منطقك ، فكيف لو كنت تجيدين الغناء ؟

فتبادلت القينة مع أشعب النظر ، ثم انطلقت تغنى :

ولى كبـد مقروحـة ، من يبيعنـى
بها كبـداً ليست بذات قروح ؟
أبى النـاس ، كل النـاس ، لا يشتـرونها
ومـن يشتـرى ذا علـة بصحيـح ؟

فطرب أشعب . وقام بنان من فوره فجلس بين يدى الجارية وقال :

ـــ كل مملوك لى حر وكل امرأة لى طالق ، لو كانت الدنيا لى كلها صررا فى كمى لقطعتها لك ، فأما إذا لم يكن لى من ذلك شىء ، فاللهم اجعل كل حسنة لى لك ، وكل سيئة عليك على ..!

فابتسمت رشأ وقالت :

ـ جزاك الله خيراً . فوالله ما يقوم الوالد لولده بما قمت به لنا .

فقام أشعب من فوره وقعد بين يديها وقال :

ـ كل مملوك لى حر وكل امرأة لى طالق إن كان وهب لك شيئاً أو حمل عنك وزراً .. فهو ما له حسنة يهبها لك ، ولا عليك سيئة يحملها عنك . فلأى شيء تحمدينه وتشكرينه ؟

فضحكت وضحك بنان .. وأمسك بنان بيدها فلثمها وقال :

ـ بحقى عندك .

ـ ماذا ؟

ـ تزيدين فى السماع .

فنظرت إليه وقالت :

ـ وأنت ، كيف علمك بالغناء ؟

فقال مرتبكاً :

ـ علم لا أحمده .

فقالت :

ـ فعلى ما إذن أنفخ بغير نار ! ما منعك من معرفته ؟ فتدخل أشعب قائلًا : « منعه من معرفته أن له صوتاً أقبح من وجهى ! » .

فنظرت القينة إلى بنان وقالت باسمة :

ـ لن أردك مع ذلك خائباً .. أزيدك فى السماع ! وانطلقت تغنى :

أنـــا التـــى لـــم ير مثلـــى بشـــر

كلامـــى اللـؤلـــؤ حين ينـــتشر

أسحر من شئت ولست أسحر
إن سمع الناس كلامى كفروا

فاستخف أشعب الطرب ، ولم يدر ما يصنع فنهض فى الحال ونزع عمامته عن رأسه وألقى بها من النافذة . فصاح به بنان :

ـ ويلك ، ما فعلت بعمامتك ؟

فقال أشعب :

ـ تصدقت بها على الشيطان الذى أجرى هذا الكلام وهذا الغناء على لسانها !

فأخذ بنان للفور عمامته هو أيضًا ورمى بها من النافذة قائلًا :

ـ أتسبقنى أنت إلى بر الشيطان ؟!

وضحكت الجارية . وضحك الجميع . وخرج أشعب إلى الطريق يأتى بعمامته . وخرج بنان خلفه يفعل مثله ، فما كادا ينفردان حتى همس أشعب فى أذن صاحبه :

ـ ويحك ! متى الطعام والشراب ؟ هذا والله لا يليق.فأخرج بنان من ثيابه منديلًا نفيساً يضن به ويحرص عليه ، وقال :

ـ لا أملك والله غير هذا المنديل .

فاختطفه أشعب من يده قائلًا :

ـ هو البغية .

فقال بنان : « خذه .. لا بارك الله لك فيه ! » .

وجرى أشعب به تواً إلى السوق .

عاد أشعب مع المساء ، وقد باع المنديل بدينار ، واشترى لحماً

وخبزاً ونبيذاً ، ودخل على صاحبه بنان والجارية ، فإذا هما يتساقطان حديثاً كأنه قطع الروض الممطور ، وإذا بنان يقول لها فى شبه همس :

أتـــرى الزمـــان يسرنـــا بتـــلاق
ويضـــم مشتـــاقاً إلـــى مشتـــاق ؟

فتجيبه هى بصوت خفى وترجيع شجى :

ما للزمـــان يقـــال فيـــه ؟ وإنمـــا
أنـــت الزمـــان ، فسرنـــا بتـــلاق

فوقف أشعب على رأسيهما قائلًا : « ما شاء الله ! ما شاء الله ! » .

فانتبها مذعورين ، والتفت بنان إلى رفيقه قائلًا : « ما صنعت ؟ » .

فوضع أشعب بينهما الطعام والشراب ، وأخبره بما فعل ، فقال له بنان :

ـــ كيف يصلح طعام وشراب وجلوس مع وجه نظيف بلا نقل ولا ريحان ولا طيب ؟ اذهب فأكمل الخير !

فخرج أشعب يكمل الخير وهو يعدو عدواً حتى لا تطول له غيبة ..

* * *

وأقبل أشعب بالنقل والريحان والطيب وهو يلهث . وكان ظلام الليل قد هبط . فألفى باب الدار مفتوحاً كعهده به عند خروجه ، فدخل . وإذا هو لا يرى لصاحبيه ولا لشىء مما كان قد أتى به أثراً . فسقط فى يده . وبقى متلهفاً حائراً يرجم الظنون ويجيل الفكر سائر وقته ، حتى مضى من الليل جزء ، ونفد صبره ، فقال فى نفسه :

ـــ أفلا أدور فى البيت لعل البحث يوقفنى على أثر ؟

ونهض يجوس خلال الدار ، وإذا هو يقف على باب سرداب ، وإذا صاحباه قد هبطا فيه وأنزلا معهما جميع ما يحتاجان إليه ، فأكلا وشربا وتنعما . فلما أيقن أشعب ذلك دلى رأسه ثم نادى زميله :

— ويلك يا بنان !

فلم يجبه أحد . فرفع صوته ونادى ثلاثا . فأجابه آخر الأمر صوت بنان من أعماق السرداب :

وأمسيت فى ليلين : للشعر ، والدجا
وشمسين من : كأس ، ووجه حبيب

ثم سكت الصوت . وأراد أشعب أن يستجلب كلام صاحبيه ، فلم يجيباه .

فبات وحده ليلة يقصر عمر الدهر عن ساعة منها طولاً وغما . وطلع النهار ، فخرج إليه بنان ، فما كاد يراه حتى وثب إليه صائحاً :

— أهذا يصح يا بنان ؟

وجعل يؤنبه ، فقال له بنان :

— يا صفيق الوجه ! منزلى ومنديلى وطعامى وشرابى ، فما شأنك فى الوسط ؟!

فبهت أشعب لحظة ، ورأى الجواب مفحماً فقال « متمحكاً » :

— حق القيادة والفضول ، والله لا غير !

وظهرت الجارية فى تلك اللحظة ، فولى بنان وجهه إليها وقال لها :

— بحياتى ألا أعطيته حق قيادته وفضوله !

فقالت باسمة : « أما حق قيادته فعرك أذنه . وأما حق فضوله فصفع

قفاه » .

فنظر أشعب إليها فاغراً فاه . واستقبله بنان على الفور فعرك أذنه وصفعه ، فالتفت أشعب قائلا :

— ما هذا ؟

فأجاب بنان : « الحكم » .

فوضع أشعب يده على مكان الصفعة ونظر إلى بنان شذراً :

— الحكم ؟!

فقال بنان باسماً :

— نعم ، جرى الحكم عليك بما جرى لك من العدل والاستحقاق .

مرت أيام ضاقت فيها الدنيا بأشعب حتى نسى شكل الخبز وطعم اللحم . فخرج من الجوع يهيم فى الأسواق . فلم يظفر بشىء . ولم يفتح الله عليه بمنظر أكل ولا آكلين . ولم يبلغ أذنيه حتى مجرد ذكر الطعام ، سوى قول جماعة مروا به فى الطريق يتحدثون فى أمر المسيح الدّجال . فقال أحدهم :

— إن الدّجال رجل يخرج فى سنة قحط معه « جرادق » أصبهانى ، وملح « درانى » و« انجذان » سرخسى !

فتلمظ أشعب وصاح فيهم :

— هذا ، عافاكم الله ، رجل يستحق أن يستمع له ويطاع !

ثم سار فى طريقه على غير هدى ، حتى قادته قدماه إلى بيت صديقه بنان ، فوقف تحت نافذته وأنشد :

أنـــــا فى حال تعـــــــالى الله ربى أى حال
ليس لى شىء إذا قيل : « لمن ذا ؟ » قلت : « ذا لى »
ولقـــد أفـــلست حتـــى محت الشمس خيـــالى
ولقـــد أفـــلست حتـــى حل أكلى لعيـــالى

فأطل عليه بنان من النافذة وقال له : « ادخل ! » .

فدخل أشعب مسرعاً يقول : « حفظك الله وأبقاك ! » .

وجعل يتنسم رائحة قتار أو طعام فى البيت فبادره بنان بقوله :

— إنى لم أدعك من أجل ذلك ! فأنا حالى كحالك إنما قد خطر لى خاطر لعل فيه النجاة لى ولك .

— ما هو ، أصلحك الله ؟

— ما قولك لو رحلنا معاً اليوم إلى مكة فقد نجد فيها رزقاً ؟ وقديماً قالوا : فى السفر سبع فوائد . ونحن والله لا نبغى غير فائدة واحدة هى : الطعام ومباشرة الكرام .

— وكيف لنا بالسفر ؟

— اليوم ترحل قافلة إلى مكة ، لى فيها من يحملنى ويحملك بغير نفقة .. فهلم بنا !

مضى أشعب وبنان من ساعتهما إلى القافلة . وكان اليوم يوم جمعة . فبينما هما فى الطريق مرا بمسجد قد ازدحمت فيه الناس تصلى الجمعة . فتمهل أشعب وحدثته نفسه بالصلاة . فأخبر زميله ، فانتهره ، وثناه عن رغبته فأصر أشعب قائلاً :

— أريد أن أستعين ببركات الصلاة على وعثاء الفلاة .

— اذهب أنت وحدك ، ولئن فاتتك القافلة فليس عليّ لوم .

— إنما هي ركعة أستودع بها المدينة .

* * *

ومشى بنان في طريقه . وعرج أشعب على المسجد ودخل . وكانت الصلاة قد بدئت . ووجد الصف تاماً . فلم يستطع أن يقوم وحده ، فجذب ثوب شيخ أمامه في الصف ليتأخر فيقوم معه ، فلما تأخر الشيخ ورأى أشعب الفرج تقدم فقام في موضع الشيخ وترك الشيخ قائماً خلفه في قفاه ويدعو الله عليه . وكان الإمام من سوء الطالع رجلاً مبطاء ثقيل الحركات ، فجعل يقرأ فاتحة الكتاب بقراءة « حمزة » مد وهمزة ، ثم انحنى للركوع بنوع من الخشوع لم يعهده أشعب من قبل ، ثم رفع رأسه ويده وقال : « سمع الله لمن حمده » وقام حتى ما شك أشعب أنه قد نام .

وحل بأشعب الغم وأيقن بفوات القافلة.وضرب الإمام بيمناه وأكب لجبينه ثم انكب لوجهه ، وأشعب يتقلى على نار الصبر ، ويتقلب على جمر الغيظ ، وليس له إلا السكوت والإذعان ، أو الكلام والقبر ، لما يعلم من خشونة القوم في ذلك المقام لو أنه قطع الصلاة قبل ختامها . فنزل على حكم الضرورة وقد قنط من الرحل والرحيل . ثم راجعه الأمل فرفع رأسه ينتهز فرصة فلم ير بين الصفوف فرجة . فعاد إلى السجود يائساً ، حتى كبر الإمام للقعود وقام إلى الركعة الثانية فقرأ الفاتحة وسورة القارعة قراءة استوفى بها عمر الساعة ، وكاد يستنزف أرواح القوم . فلما فرغ من ركعتيه وأقبل على التشهد ومال إلى التحية ، وقال أشعب في نفسه : « لقد سهل الله المخرج وقرب الفرج » إذا رجل قد قام من بين الناس

صائحاً : « أيها الناس من كان منكم يحب النبي والصحابة فليعرني سمعه ساعة » فلم ير أشعب مناصاً من أن يلزم مكانه كما فعل جميع الناس .

وصاح الرجل : « أيها الناس ! خليق بى أن لا أقول غير الحق ولا أشهد إلا بالصدق . قد جئتكم ببشارة من نبيكم ، ولكنى لا أؤديها حتى يطهر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوته .

فربط هذا القول أشعب بالقيود وشده بالحبال ، فلو تحرك بعدئذ وقام من بين الناس لكان هو ذلك النذل الجاحد فى نظر الجميع ، ومضى الرجل يقول : « رأيته فى المنام ﷺ كالشمس تحت الغمام والبدر ليل التمام ، يسير والنجوم تتبعه ، ويسحب الذيل والملائكة ترفعه ، ولقد علّمنى دعاء أوصانى أن أعلمه أمته ، فكتبته على هذه الأوراق بمسك وزعفران ، فمن دفع لى ثمن القرطاس أعطيته » .

فانهالت الدراهم على الرجل حتى حيرته ، ورأى أشعب ذلك فتعجب من حذق الرجل واحتياله لرزقه ، وجعل يتأمل فصاحته فى وقاحته ، وربطه الناس بهذه الحيلة البارعة ، وأخذه المال الوافر بهذه الوسيلة اليسيرة !

وخرج أشعب من المسجد وهو يفكر فى الأمر ويقول فى نفسه : « ما كان أحرانا أن نحتال للعيش بمثل هذه الحيل ، بدلًا من انتظار الولائم والأعراس ! » ، وسار فى طريقه حتى بلغ مكان القافلة فعلم أنها رحلت بصاحبه . فعاد خائباً فى غم وجوع لا يدرى أين يذهب ولا كيف يجد غداءه ، وإذا هو برجل من ريف المدينة يسوق حماره وعلى وجهه أمارات السذاجة ، فقال فى نفسه : « ظفرنا والله بصيد ثمين » .

وأقبل على الريفى صائحاً : « حياك الله يا أبا زيد ! من أين أقبلت ؟ وأين نزلت ؟ ومتى وافيت ؟ هلم إلى بيتي ! » .

فوقف الرجل دهشاً يقول : « لست بأبي زيد ، ولكني أبو عبيد » .

فقال أشعب فى صوت المستدرك : « نعم لعن الله الشيطان وأبعد النسيان ، أنسانيك والله طول العهد ، كيف حال أبيك ؟ » .

فقال الرجل : « لقد نبت الربيع على قبره » .

فصاح أشعب : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ! » .

ومد يده إلى صدره يريد أن يمزق قميصه من الجزع ، فقبض الريفى على يده قائلا : « نشدتك الله لا تمزقه ! » .

فأظهر أشعب التجلد والطاعة ، وأبقى على ثوبه ثم جذب يد الريفى قائلا :

— هلم إلى بيتي كي نتغدى ، أو إلى السوق لنشترى شواء ، نعم ... السوق أقرب وطعامها أشهى .

ومشى به إلى حانوت شواء تتصاعد رائحة دخانه شهية إلى الأنوف فتحرك أفواه البطون ، وقال أشعب لصاحب الحانوت : « افرز لأبي زيد من هذا الشواء ! » .

ونظر إلى صوانى معروضة وقال : « ثم زن له من تلك الحلوى ، واختر له من تلك الأطباق ، وانضد عليها أوراق الرقاق ورش عليها شيئا من السكر وماء الورد ليأكله أبو زيد هنيئاً ! » .

فانحنى الشواء بساطوره على ذلك اللحم الطرى . وقطع وقدم إلى أشعب والريفى ، فجلسا وأكلا حتى استوفيا . فقال أشعب لصاحب الحلوى :

ـــ زن لأبى زيد من اللوزينج رطلين ، فهو أجرى فى الحلوق ، وليكن رقيق القشر كثيف الحشو لؤلؤى الدهن يذوب كالصمغ قبل المضغ ، ليأكله أبو زيد هنيئاً .

فوزن صاحب الحلوى لهما . وقعد الرجلان وشمرا حتى استوفياه ، فقال أشعب للريفى : « يا أبا زيد ، ما أحوجنا إلى ماء مشعشع بالثلج يبرد جوفنا بعد هذه الأكلة النظيفية ! » .

فقال الريفى : « صدقت » .

فقام أشعب وهو يقول له : « اجلس يا أبا زيد ولا تبرح حتى نأتيك بسقاء ! » . وخرج أشعب فائزاً بالسلامة ومعدة مملوءة .

ومضى النهار ، وعلم الريفى من إبطاء أشعب أنه لن يعود ونفد صبره من طول الانتظار ، فقام إلى حماره ، فلمحه صاحب الحانوت فتعلق بثوبه وقال له : « أين ثمن ما أكلت ؟ » .

فقال الريفى : « لقد أكلته ضيفاً » .

فلكمه صاحب الحانوت لكمة ، وثنى عليها بلطمة وقال له : « متى كنا دعوناك ؟ » هاك فخذ ...

ونزل عليه الشواء لكما ولطما وهو يقول :

ـــ زن يا أبا الوقاحة عشرين !

وجعل الريفى يصرخ ويلعن ويصيح : « لعن الله ذلك الشيخ المحتال ، لقد قلت له أنا أبو عبيد ، فيقول لى أنت أبو زيد ! » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أشعب فى مكة

مرت الأيام وأشعب لا يسمع خبراً عن بنان . ولا يجد سبيلًا إلى لقمة ، فقد عرفه الناس فى المدينة فلم تعد تنفع الحيلة ولا الوسيلة ، ولم تعد تقع عينه على خوان ولا على قوم أمام طعام ، كأنما الناس فى لؤمهم قد أصبحوا يأكلون فى بطون الأرض أو أجواز السماء . ومشى أشعب غداة ذلك اليوم لا ينتظر شيئاً ولا يفكر فى شيء ، فدهم فى جانب من جوانب الطريق جماعة يتغدون وهم غرباء لم يعرفوه . فقال لهم :

ــ سلام عليكم معشر اللئام !

فرفعوا أبصارهم إليه قائلين : « لا والله بل كرام ! » .

فثنى رجله فى الحال وجلس بينهم وهو يقول :

ــ اللهم اجعلهم من الصادقين واجعلنى من الكاذبين !

ثم مد يده فى القصعة التى بين أيديهم وهو يقول : « ماذا تأكلون ؟ » .

فأرادوا أن يقفوا تهجمه ، فقالوا فى فتور : « نأكل سماً ! » .

فحشا فمه وازدرد وهو يقول :

ــ الحياة بعدكم حرام !

وجعل يجول فى القصعة كما يجول الفارس فى الميدان . فلما رأوه قد أغار على أكلهم ، وكاد يحرمهم زادهم فى غير حشمة ولا حياء ، نظر

بعضهم إلى بعض، ثم التفتوا إليه قائلين :

— أيها الرجل ! هل عرفت منا أحداً ؟ فأشار أشعب بإصبعه إلى الطعام وقال : « عرفت هذا » .

فسكتوا عنه ، وقد استظرفوه ، وتبادلوا الحديث ، فعرف منهم أشعب ، أنهم من أهل مكة ، وقد جاءوا فى القافلة الأخيرة ، وقال أحدهم إن معه رقعة من رجل اسمه بنان فى مكة لرجل اسمه أشعب فى المدينة ، فاهتز أشعب سروراً وكشف لهم عن حقيقته ، وتسلم الرقعة ، وقرأها فعلم منها أن صاحبه قد استقر فى أحسن حال.. وقد بارحته أيام العسر والضيق.. وله حرفة شريفة يدر منها المال ، وهو يسأله أن يأتى إليه مع أول قافلة متهيئة للرحيل ، كى يعاونه فى ذلك العمل ويشاركه فى ذلك الكسب الحلال ...

* * *

قام أشعب من فوره فرحل مع قافلة ذاهبة إلى مكة . ولم يكن معه مال ولا أحمال ، ولم يدر كيف غاب عن فطنة بنان ، وقد أصبح حسن الحال كما قال : أن يرسل إليه مع الرقعة بما يقيم أوده حتى الوصول . لعله خشى أن يأخذ أشعب المال ويكسل عن تجشم الرحيل . ولم يعدم مثل أشعب الوسيلة ، فقد سار مع القافلة على قدميه يغنيهم ويضحكهم ، وقد كان سيره أول الأمر إلى جانب ناقة عليها شيخ وشاب ، فلحظ أن الشاب كثير البكاء ، فاستعلم فأخبروه أنه عاشق لابنة عمه وقد فرقت بينهما الأحداث ، وأن الشاب اشترك مع ذلك الشيخ فى السفر والمؤونة وكانا على ضيقة وعسر . فجعلا لهما فى كل يوم قرصا من الخبز . وكان الشيخ

متخلع الأضراس بطيء الأكل ، فكان الشاب يبطش بالقرص ثم يقعد يشتكي العشق ، ويتضور الشيخ جوعا ، وكان اسم ذلك الشاب جعفرا ، فجعل أشعب يغني فيهما قائلا :

لقد رابني من جعفر أن جعفرا
يطيش بقرص الشيخ فى آخر الليل
فقلت له : لو مسك الحب لم تبت
سمينا وأنساك الهوى شدة الأكل

فضحكت القافلة وأنست إلى أشعب ، وحمله معه رجل من التجار يسافر وحده على جمل ، فلبث أشعب معه طول الطريق ينزلان ويقومان ، والرجل فى كل يوم يحضر الطعام ويجهزه وأشعب لا يصنع شيئا . فقال له الرجل ذات يوم : « قم اليوم فاطبخ » .

فقال أشعب : « لا أحسن ذلك » .

فطبخ الرجل ، ثم قال لأشعب : « قم فأثرد » .

فقال أشعب : « والله كسلان » .

فثرد الرجل ، ثم قال : « قم فاغرف » .

فقال أشعب : « أخشى أن ينقلب على ثيابى » .

فغرف الرجل ثم قال لأشعب : « قم الآن فكل » .

فنهض أشعب قائلا : « قد والله استحييت من كثرة خلافى عليك ! » وتقدم إلى الأكل فقام فيه مقام رجلين .

* * *

وصل أشعب إلى مكة وسأل عن بنان ، فقيل له إنه كان قد استأجر

دارا فى مكة يجمع فيها بين الرجال والنساء ويحمل لهم الطعام والشراب . فشكاه الناس إلى والى مكة فنفاه إلى عرفات ، فمشى أشعب من ساعته إلى عرفات ، فوجد صاحبه قد أقام فيها منزلا ورأى أمام المنزل قطيعا من الحمير مرتبطة ، فما رآه بنان داخلا عليه حتى فتح له ذراعيه وتعانقا ، وأخبره بما هو فيه من الرخاء واستواء الحال وأنه لا ينقصه لتمام سرور من يجيئونه غير الغناء والطرب ، وهذا لا يقوم به غير أشعب ، ولهذا أرسل إليه ، فتأمل أشعب المكان وقال لصديقه : « أهذا هو العمل الشريف والكسب الحلال ! » فانتهره بنان وقال له : « أليس هذا أشرف من أن ندعو أنفسنا إلى موائد الغير وشرابهم ؟ إنما ندعو الآن الناس إلى شرابنا نحن وموائدنا وغنائنا ، فماذا فى ذلك ؟ » .

فقال له أشعب :

ــ أما نفاك والى مكة ؟ فكيف يجيئك الناس ها هنا ؟

فأجاب بنان :

ــ الأمر هين . فقد أرسلت إلى الناس أقول : « ما يمنعكم من أن تعاودوا ما كنتم فيه ! » فقالوا : « وأين بك وأنت فى عرفات ؟ » فقلت لهم : « حمار بدرهم وقد صرتم على الأثر فضلا عن النزهة » . ففعلوا . وما زالوا يفعلون ، وتلك حميرهم بالباب .

استطاب أشعب تلك الحياة الجديدة ، لقد عرفت يده ثقل الدراهم ، وبطنه الشبع ، وظهره الكساء ، وأصبح الشراب من لزوم عمله . لا يفيق منه إلا إليه . وهو يعد شريك بنان فى كل ما ملك حتى فى ذلك الخادم الذى يقوم بخدمتهما .

ولم يدر أشعب أين ينفق ماله ، ولم يشأ أن يركب حمارا بالكراء يحمله فى غدواته وروحاته من مكة إلى عرفات ، ومن عرفات إلى مكة . فذهب إلى نخاس بسوق الدواب فقال له :

— اطلب ما شئت من الثمن ، وأعطنى حمارا يليق بى وأليق به .

فقال النخاس وهو ينظر إلى بذخ أشعب :

— تبغى حماراً عظيم الهيئة سريع الخطوة ؟..

فقال أشعب :

— أبغى حمارا ليس بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر ، إذا خلا له الطريق تدفق ، وإذا كثر الزحام ترفق ، إن أقللت علفه صبر ، وإن أكثرته شكر ، وإذا ركبته هام ، وإن ركبه غيرى نام .

فنظر إليه النخاس محملقا مشدوها ثم قال له :

— يا عبد الله ، اصبر . فإن مسخ الله قاضى مكة حمارا أصبت حاجتك إن شاء الله .

ثم أراه بعد ذلك حمارا حسن المنظر أنيق المظهر ليس به من الخصال ما طلب أشعب . ولكن فيه من الأمارات ما يغرى ، فركبه أشعب من ساعته ونقد الرجل الثمن . ومشى به يتبختر ، مشية لم يعرفها من قبل لا على قدميه ولا على ظهر دابة . وعاد به إلى عرفات.. فلم يخلطه مع الحمير الواقفة بالباب ازدراء لشأنها وتعظيما لشأنه . فربطه وحده تحت نافذة بنان ، ودخل فألفى مجلس الشراب قائماً ، والرجال والنساء مختلطين . وبنان ليأسه من غيبة أشعب فى السوق ، ولما صور له السكر من الوهم والخيلاء قد حل محل أشعب فى الغناء . وإذا القوم يضجون ،

يريدون أن يسكتوه وهو لا يريد أن يسكت ، وما كادوا يرون أشعب داخلا حتى هللوا فرحين ، وأقبل عليه الرجال وأقبلت النساء ، وارتفعت الأصوات تقول له :

ــ أسكت لنا صاحبك !

فأراد أن يسكته فلم يستطع ، وأقبل الناس على بنان يقولون له :

ــ لقد حضر أشعب ، فمن أحسن غناء .. أنت أو أشعب ؟

فقال بنان :

ــ أنا شيء . وأشعب شيء .. أنا أغنى بدرهم . وأسكت بدينار ، أما أشعب فيغنى بدينار ويسكت بدرهم ، فسكوتى إذن أغلى من سكوت أشعب ! فوالله ما أسكت حتى تدفعوا الثمن !

فصاح الناس :

ــ ندفع والله !

وصاحت النساء تطلب إلى أشعب أن يغنى فقال لهن :

ــ بثمنه كما قضى زميلى .

فقلن :

ــ ندفع والله ..

فسكت بنان . ونهق الحمار تحت النافذة . فقال أشعب :

ــ هذا والله هو وحده الذى طرب لغناء بنان !

ثم شرب رطلين ورفع عقيرته يغنى بصوته الحسن ويشير إلى بنان :

ومغــن إن تغنــى   أورث الندمــان هما
أحسن الأقــوام حالا   فيــه من كان أصمـا

فضحك المجلس وطرب وانهالت على أشعب آيات الحمد والإعجاب ...

* * *

مرت الأيام وشاعت فى مكة أخبار ذلك المنزل فى عرفات ، وأعاد أهل مكة الشكاية إلى الوالى إن هذين القوادين لا يفتران عن هذا الفعل ، حتى فسدت أحداث مكة . فأرسل الوالى الشرطة إلى بنان وأشعب ليحضروهما ، وكانا قد قاما عن العشاء وامتلأ بطناهما بألوان الطعام . وقد شرب ليلتئذ أشعب حتى جعل يقول لمن حضر :

اسقنى صرفا حميا　　تترك الشيخ صبيا
وتريه الغـى رشداً　　وتريه الرشد غيا

ورأى خادمهما الشرطة مقبلين ، فأسرع يخبرهما وكانا قد أعدا سردابا يخفيان فيه الناس والحمير إذا وقع خطب من هذه الخطوب . فبادر إلى محو آثار ما كانوا فيه . وكبس الدار رجال الوالى.. فلم يجدوا غير أشعب وبنان.. فقادوهما إلى مكة . فذهبا وتركا خادمهما يطلق الناس إذا لاحت ساعة الأمن والسلامة . ودخل الرجال بأشعب على الوالى ، فلما رآه قال :

ـــ ليس هذا ببنان ، من أنت أيها الرجل ؟

فغمز أشعب بعينه وقال : « خادمك وعبدك ! » .

ولحظ الوالى من حركاته ما جعله يقول لرجاله :

ـــ هذا الرجل شارب .

فقال أشعب : « لا .. أصلحك الله ! » .

فقال الوالى : « استنكهوه ! » .

فأقبل الرجال على أشعب فشموا رائحة فمه ، ثم قالوا :

ــ إن نكهته لا تبين عليه .

فقال الوالى : « قيئوه ! » .

فصاح أشعب : « وإن لم أقئ شرابا فمن يضمن لى عشائى ؟! » .

ولم يكد يتم عبارته.. حتى دخل بقية الرجال ببنان . فلما أن رأى الوالى بنان حتى عرفه وصاح به :

ــ يا عدو الله ! طردتك من مكة فصرت تفسد فى المشعر الحرام !

فقال بنان : « يكذبون على ، أصلح الله الأمير » .

فأمر الوالى بوضعهما فى الحبس حتى الصباح . وما إن طلع النهار وجلس الوالى فى مجلسه حتى أمر بأصحاب الشكاية فأحضروا . فسألهم الدليل فقالوا : « أصلحك الله ، الدليل على صحة ما نقول أن تأمر بجميع حمير مكة فترسل بها أمناء إلى عرفات ، فيطلقوها فإن وقفت كعادتها على منزله دون المنازل ، فنحن غير كاذبين ولا مبطلين » .

فقال الوالى : « نعم ، إن فى هذا لدليلا وشاهدا عدلا » .

وأمر من ساعته بحمير من حمر مكة التى للكراء ، فأرسلت وأطلقت فإذا هى تصير إلى منزل بنان لا تلوى على شىء ، كأنها به عليمة خبيرة .

فلما علم الوالى بذلك قال : « ما بعد هذا شىء .. جردوه ! » .

فأتى الرجال ببنان وجردوه من ثيابه ، فلما نظر إلى السياط ، التفت إلى الأمير قائلا : « لا بد أصلحك الله من ضربى ؟ » .

فقال : « نعم يا عدو الله ! » .

فقال بنان :

ـــ والله ما فى ذلك شىء هو أشد على نفسى ، من أن يشمت بنا أهل العراق ويضحكوا منا ، ويقولوا أهل مكة يجيزون شهادة الحمير !

فضحك الوالى ، وفكر قليلا ، ثم قال :

ـــ أتحب أن أخلى سبيلك ؟ على شرط ..

ـــ وما هو حفظك الله وأبقاك !

ـــ أن تغادر من ساعتك أنت وصاحبك هذه البلاد .

ذهب بنان وأشعب توا إلى عرفات ليحملا متاعهما ويرحلا كما أمر الوالى . فوجدا خادمهما قد سبقهما إلى النية ، فوضع الدراهم والملابس وما خف وغلا فى صرر ، وتهيأ للهرب . فوثب عليه بنان فضربه ضربا مبرحا ، فقال أشعب :

ـــ ماذا تصنع ؟ لا تضرب العبد كل هذا الضرب فقد دفعت فيه كما دفعت أنت.. وحقى فيه كحقك أنت !

فقال بنان :

ـــ إنى أضرب نصيبى منه !

فأشار أشعب إلى الصرر :

ـــ وهذه ؟

فقال بنان :

ـــ كل شىء يقسم بيننا بالعدل ..

فقام أشعب إلى الخادم فضربه هو أيضاً قائلا :

ـــ وأنا أضرب حصتي فيه ..

فانفلت منهما العبد وكان جلدا نشطا ذكيا ، ورفع ثيابه وسلح عليهما وقال : « اقسما هذه على قدر الحصص ! » .

وولى الأدبار . وبقيا هما مشغولين يومهما بجمع ما استطاعا جمعه وبيع ما قدرا على بيعه ، وخرجا من ذلك النعيم آسفين ...

أشعب فى الحمام

عاد أشعب وبنان إلى المدينة ، فدخلاها دخول الظافرين ، خلفهما عبدهما الهارب — وقد راجعاه وأرضياه — يحمل لهما الصرر والخيرات . وقد تعاهدا على أن يقيما معاً فى منزل واحد لينفقا فيه هذا المال سويا . وذهب أشعب إلى داره أول الأمر ، فرأى امرأته وعياله وترك لهم بعض النفقة ، وعرج على الكندى يسأل عن خبره ويضحك من أطواره ، ويرى كيف وقع العودة عليه ، فسأل عنه فقيل له إنه خرج فغير من بكرة الصباح ليقتضى رجلاً خمسة دراهم فضلت ديناً عليه ، وأن هذا ما يشغله منذ أيام طويلة ، فهو يخرج من أجل هذا الدين من أول النهار فلا يرجع إلا مع آخره لبعد الشقة وكثرة المماطلة ، فجلس أشعب ينتظره حتى رجع ، فما وقع نظر الكندى على أشعب ببابه حتى امتقع لونه ، فابتدره أشعب صائحا :

— لا تخش شيئا ، بأبى أنت وأمى !

وقص عليه أخبار الرحلة ، وأراه ما هو فيه من النعمة فأشرق وجه الكندى ، وجعل ينظر إلى ثوب أشعب النظيف معجبا أول الأمر ، غير أنه عاد فهز رأسه وقال متفاخرا :

— لا والله .. أين ذلك القميص !

فلم يفطن أشعب وقال :

ـــ أى قميص ؟!

وفجأة تذكر الليلة التى سكر فيها الكندى ، فضحك حتى دمعت عيناه ، فأراد أن يسره ويهون عليه تلك المصيبة التى ما زال يذكرها ، فدعاه إلى طعام وشراب فى ذلك المنزل الذى جعله هو وبنان لمنادمتهما. ومضى أشعب فأخبر صديقه وشريكه ليعد وليمة فى ذلك المساء ورأى أشعب أن شعره قد طال وبدنه قد اتسخ من طول السفر .

فقال للخادم :

ـــ اختر لنا حماما نظيف البقعة طيب الهواء معتدل الماء ، وحلاقاً خفيف اليد حديد الموسى قليل الفضول .

فقاده الغلام إلى ما أراد ، ودخل أشعب الحمام ، فلم يرعه إلا رجل قد دخل على أثره وعمد إلى قطعة طين فلطخ بها جبينه ووضعها على رأسه ثم خرج ، ودخل آخر فجعل يدلكه دلكاً يكد العظام ويغمزه غمزا يهد الأوصال ، ثم عمد إلى رأسه يغسله ويرسل عليه الماء ، وإذا الأول قد عاد فرأى الثانى منهمكا فى العمل فلكمه لكمة كادت تطير أسنانه وقال له :

ـــ يا لكع ، ما لك ولهذا الرأس وهو لى ؟

فقام إليه المضروب وعطف عليه بلطمة كادت تضيع صوابه : وقال له :

ـــ بل هذا الرأس حقى وملكى وفى يدى .

وتلاكما حتى تعبا ، وتجاذبا الأثواب وسارا يتحاكمان إلى صاحب

الحمام . فقال له الأول :

ـــ أنا صاحب هذا الرأس ، لأنى لطخت جبينه ووضعت عليه الطين .

وقال الثانى :

ـــ بل أنا مالكه ، لأنى غسلته ودلكت صاحبه .

فقال الحمامى :

ـــ ائتونى بالزبون أسأله لأيكما هذا الرأس ؟

فذهب الرجلان إلى أشعب وقالا له :

ـــ لنا عندك شهادة ، فقم معنا !

وكان أشعب ما زال موضوعا فى مكانه وضعا لم يفهم مما حدث أمامه شيئا ولا أدرك لهذا الشجار معنى ، فنهض وسار معهما إلى صاحب الحمام ، فابتدره الحمامى قائلًا :

ـــ يا رجل لا تقل غير الصدق ولا تشهد بغير الحق ، قل لى : هذا الرأس لأيهما ؟

فوقف أشعب دهشاً مشدوهاً لحظة ، ثم قال :

ـــ يا عافاك الله ، هذا رأسى أنا ، قد صحبنى طول الطريق من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى عرفات ، وما شككت أنه لى .

فقال له الحمامى منتهرا :

ـــ اسكت يا فضولى !

ثم مال إلى أحد الخصمين وقال له :

ــ يا هذا .. إلى متى هذه المنافسة بينكما على رأس صغير الشأن قليل الخطر !

ثم عرج على الخصم الآخر وقال مهونا عليه :

ــ وأنت يا هذا ! هب أنك لم تر رأس هذا التيس !

فقام أشعب من ذلك المكان خجلا ، وارتدى ثيابه على عجل وانسل من الحمام ، فوجد خادمه المنتظر بالباب يقول له :

ــ نعيما إن شاء الله !

فهوى فى الحال بكفه على قفا الخادم .

ــ أنعم الله عليك بهذا !

أشعب والحلاق

أسرع أشعب فدخل المنزل وأوصى الغلام أن يأتيه بحلاق ، وأن يحذر هذه المرة ، فلا يحضره فضولياً ولا ثرثاراً . فحسبه ما ذهب من الوقت فى غير شيء ، سوى ما رآه من شجار وما لحقه من سباب !

فانصرف وعاد برجل ، دخل فسلم وما هو إلا أن دارت يده على وجه أشعب حتى قال له :

ـــ جعلت فداك ، هذا وجه لا أعرفه ، فمن أنت ؟

فقال أشعب :

ـــ اسمى أشعب .

فقال الحلاق :

ـــ بأبى أنت وأمى ، هذا الاسم لا يجهله أحد فى المدينة ! ومن أين قدمت ؟ فإنى أرى أثر السفر عليك ؟

فقال أشعب :

ـــ من مكة ..

فقال الحلاق :

ـــ حياك الله ، من أرض النعمة والرفاهة ، وبلد رسول الله الكريم . لقد حضرت فى شهر رمضان جامعها وقد أشعلت فيه المصابيح وأقيمت

التراويح ..

وجعل يقص قصة طويلة لا آخر لها ولا معنى وأشعب يصبر نفسه .

وفرغ الحلاق من القصة فعاد يسأل :

ـــ وأى شيء أقدمك ؟ أصلحك الله !

فأجاب أشعب :

ـــ أقدمنى الزمن وتقلباته ، ولكن إذا فرغت سأخبرك بالأمور على وجهها .

فقال :

ـــ وتعرفنى بالمنازل والسكك التى جئت عليها .

فقال أشعب :

ـــ نعم .

وكان الخادم واقفاً على مقربة منهما . فنظر إليه أشعب نظرة قاسية . فدنا منه الغلام وهمس فى أذنه معتذراً :

ـــ لن أجد حلاقاً يسكت حتى يفرغ !

ومالت الشمس إلى الغروب . ولم يفرغ الحلاق من الكلام ، ولم يفرغ مما جاء له ، وأخيرا قال :

ـــ لو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكنت قد حلقت رأسك . فهل ترى أن نبتدئ ؟

فأسرع أشعب قائلا :

ـــ وماذا كنت تصنع فيما مضى من الوقت ؟

ونهض فوثب بعيدا . وما أن استوثق أنه أفلت من يد الحلاق ومواسيه ، حتى صاح فى الخادم :

— علق هذا الحلاق من العقبين .

فهجم عليه الخادم بسواعده القوية وعلقه كما أمر . فقال له أشعب :

— جعلت فداك ، سألتنى عن المنازل والسكك التى قدمت عليها ، وأنا مشغول فى ذلك الوقت ، وظننت أنك مشغول بعملك ، فأنا أقصها عليك الآن ، فاستمع : خرجنا من مكة فى المساء فنزلنا بئرا ذات نخيل فى ظهرة الغد . يا غلام ، أوجع !

فضربه العبد عشرة أسواط . فقال أشعب :

— وركبنا عند المساء فنزلنا عين ماء حولها عشب عند طلوع النهار . يا غلام ، أوجع !

فضربه الخادم عشرة أخرى . وقال أشعب :

— ثم ركبنا ضحى اليوم وسرنا إلى نجع وقد أشرفنا على الأصيل . يا غلام ، أوجع !

فضربه العبد عشرة ثالثة . وقال أشعب :

— وبعدئذ ركبنا وسرنا حتى وجدنا ...

فصاح الحلاق مقاطعاً :

— يا سيدى ، سألتك بالله إلى أين تريد أن تبلغ ؟

فقال أشعب :

— إلى المدينة .

ـ لست تبلغها حتى تقتلنى .

فقال أشعب :

ـ أتركك على ألا تعود ؟

فصاح الحلاق :

ـ والله لا أعود أبدا .

فتركه . وكان المساء قد أقبل . وحضر بنان والكندى .. وأبصرا الخادم يحل وثاق الحلاق ، فسألا فأخبرهما أشعب الخبر .

فقال الكندى :

ـ وددت أنك بلغت به إلى أن تأتى على نفسه !

على الخوان

جلس الجميع يتحادثون ساعة قبل أن يوضع بينهم الخوان ويقدم الشراب . وحلف أشعب على الحلاق أن لا يبرح حتى يحضر معهم العشاء . فقد كفاه من التأديب ما أكله من يد العبد . وأخذ الكندى يجول بنظره فى أنحاء المكان ويعجب بالرياش . ولمحه بنان فقال له مبتسماً :

ـــ أراك شديد العجب !

فقال الكندى :

ـــ إى والله نعم .

ثم أردف سائلاً :

ـــ ومتى كان الرحيل ؟ قبل أن أهدى أشعب القميص بكم يوم ؟

فلم يفطن بنان وقال :

ـــ أى قميص ؟

فابتسم أشعب وتذكر عندئذ أمراً كان يود أن يسأل الكندى فيه . فأقبل عليه يقول له :

ـــ بالله ألا إخبرتنا : إنا نراك لأول مرة تصنع شيئا الفساد فيه ظاهر والفائدة لك فيه غير مرجوة . أخبرنا عن مضيك كل يوم إلى رجل فى

آخر السوق لتقتضى منه خمسة دراهم ديناً عليه .. أهو حزم منك ؟ لا ، إنما الحزم أن يتشدد الإنسان فى غير تضييع .

فالتفت الكندى إليه قائلا :

ـــ وما هو وجه التضييع ؟

فقال أشعب :

ـــ وجوه التضييع كثيرة . فواحدة : أنا لا نأمن عليك انتقاض بدنك وقد خلا ما خلا من سنك ، وأن تعتل ، فتدع التقاضى الكثير بسبب هذا القليل أو تتشاغل بالبعيد عن القريب ، وثانية : أنك إن تجهد هذا الجهد فلا بد لك من أن تزداد فى العشاء إن كنت ممن يتعشى أو تتعشى إن كنت ممن لا يتعشى . وهذا إذا اجتمع كان أكثر من خمسة دراهم . وبعد فإنك تحتاج أن تشق وسط السوق وعليك ثيابك ، والحمولة تستقبلك ، فمن ههنا نترة ومن ههنا جذبة ، فإذا الثوب قد أودى ، ومن ذلك أن نعلك تنقب وترق ، وساق سراويلك تتسخ وتبلى ، ولعلك أن تعثر فى نعلك فتقدها قدا ، ولعلك تهرتها هرتا من كثرة الذهاب والإياب فى سبيل هذا الدين الزهيد . منذ متى وأنت تذهب للمطالبة والاقتضاء ؟

فقال الكندى :

ـــ منذ يومين من تاريخ الليلة التى أهديت فيها لك القميص .

فأخفى أشعب ابتسامة ومضى يقول :

ـــ مضى إذن وقت طويل وأنت على هذه المشقة تتكبد كل ما ذكرنا لك من الخسائر ، ولا تجنى إذا جنيت إلا خمسة دراهم . ولما كنا نثق

دائما بحكمتك فى كل تصرفاتك . فقد أعيتنا والله هذه المشكلة .
وأحببنا أن نسألك فيها .

فتنحنح الكندى وقال :

ــ أما ما ذكرتم من انتقاض البدن ، فإن الذى أخاف على بدنى منه هو الدعة وقلة الحركة ، وهل رأيتم أصح أبداناً من الحمالين والطوافين . ولربما أقمت فى المنزل بعض الأمر فأكثر الصعود والنزول خوفا من قلة الحركة . وأما التشاغل بالبعيد عن القريب فأنا لا أعرض للبعيد حتى أفرغ من القريب ، وأما ما ذكرتم من الزيادة فى الطعام فقد أيقنت نفسى واطمأن قلبى على أنه ليس لنفسى عندى إلا ما لها ، وأنها إن حاسبتنى أيام التعب حاسبتها أيام الراحة . وأما ما ذكرتم من تلقى الحمولة ومن مزاحمة أهل السوق ومن النتر والجذب فأنا أقطع عرض السوق من قبل أن يقوم أهل السوق لصلاتهم ، ثم يكون رجوعى على ظهر السوق ، وأما ما ذكرتم من شأن النعل والسراويل فإنى من لدن خروجى من منزلى إلى أن أقترب من باب صاحبى فإنما نعلى فى يدى وسراويلى فى كمى .. فإذا صرت إليه لبستهما ، فإذا خرجت من عنده خلعتهما ، فهما فى ذلك اليوم أودع أبدانا وأحسن حالا . بقى الآن لكم مما ذكرتم شىء ؟

فقالوا جميعاً فى عجلة :

ــ لا ..

فأردف الكندى باسماً :

ــ ههنا واحدة تفى بجميع ما ذكرتم .

فقالوا جميعاً فى لهفة :

ــ ما هى ؟

- ــ إذا علم المدين القريب ومن لى عليه ألوف الدنانير شدة مطالبتى للمدين البعيد ومن ليس لى عليه إلا الدراهم ، أتى بحقه كاملاً ولم يطمع نفسه فى مالى . فهذا تدبير يجمع لى إلى رجوع مالى طول راحة بدنى . وليس من الحكمة أن أدع شيئاً من دين يطمع فى فضلة ما يبقى على الغرماء .

وسكت . فقالوا بأجمعهم فى صيحة إعجاب :

ــ ولا والله لا سألناك عن مشكلة أبدا .

وجاء وقت الطعام ، ووضع الغلام الخوان ، وقدم « مضيرة » من لحم الجدى واللبن الحامض والتوابل والأبزار ، تثنى على كرم أشعب وبنان وتشهد لهما بالسعة والرخاء ، فى قصة عظيمة يزل عنها الطرف بهاء ورواء ، فما أخذت من المائدة مكانها ، حتى قام الحلاق على قدميه ساخطاً لاعناً ، يسب آكلها وطابخها ، فظنه الحاضرون يمزح ، فإذا هو جاد فى الكلام وإذا هو يتنحى بعيداً تنحى السليم عن الأجرب ، فرابهم أمرها وخافوا أن يمدوا إليها يدا ، فرفعوها فارتفعت معها قلوبهم وسافرت خلفها عيونهم . وتحلب لها فم الكندى وتلمظت لها شفتاه ، ولكنه أذعن على مضض ، وأقبل كما أقبل الآخرون على الحلاق يسألونه عن أمرها فتنهد وقال :

ــ قصتى معها أطول من مصيبتى فيها !

وسكت ، فصاحوا به :

ـــ تكلم !

فتردد ثم قال :

ـــ أخاف لو حدثتكم بها ألا آمن من غضبكم وإضاعة وقتكم ..

فزاد بذلك رغبتهم فى الاستطلاع فقالوا له جميعا :

ـــ تحدث .

فجلس وأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال :

ـــ منذ سنوات ثلاث دعانى حلاق من إخوانى الحلاقين ، ترك الحرفة بعد أن أثرى وجمع الأموال ، إلى أكلة « مضيرة » . ولزمنى ملازمة الظل إلى أن تركت حانوتى وزبائنى وأجبته إليها ، وقمنا . فجعل طول الطريق يثنى على زوجته ويفديها بمهجته ويصف حذقها فى صناعة المضيرة وتأنقها فى طبخها ، ويقول :

ـــ يا صاحبى لو رأيتها والخرقة فى وسطها وهى تدور فى المطبخ بين القدور تنفث بفمها النار وتدق بيديها الأبزار ، ولو رأيت الدخان وقد غبر فى ذلك الوجه الجميل ، لرأيت منظراً تحار فيه العيون . وأنا أعشقها لأنها تعشقنى ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته ، ولا سيما إذا كانت من طينته ، وهى ابنة عمى لحا . مدينتها مدينتى وأرومتها أرومتى . ولكنها أوسع منى صدرا ، وأحسن خلقاً .

ومضى يحدثنى بصفات زوجته حتى انتهينا إلى الجهة التى يقيم فيها . فقال :

ـــ يا صاحبى ترى هذه الجهة هى أشرف موقع بالمدينة ، يتنافس الأخيار فى نزولها ولا يقطنها غير كل عظيم وإنما المرء بالجار . ودارى فى وسطها كالنقطة فى الدائرة انظر إلى دارى وقل لى كم تقدر ثمنها . قله تخمينا ..

قلت :

ـــ الكثير ..

فقال :

ـــ يا سبحان الله ! تقول الكثير فقط ؟

وتنهد ثم قال :

ـــ سبحان من يعلم الأشياء !

وانتهينا إلى باب داره فقال :

ـــ كم تقدر يا صاحبى ما أنفقت على هذا الباب ؟ أنفقت والله عليه فوق الطاقة ، كيف ترى صنعه وشكله ؟ أرأيت بالله نظيره ؟ انظر إلى دقائق الصنعة فيه ، وتأمل حسن تعريجه فكأنما خط بالبركار ، ثم هذه الحلقة فيه لقد اشتريتها فى سوق الطرائف من عمران الطرائفى بثلاثة دنانير . وكم فيها من النحاس يا صاحبى ! فيها ستة أرطال ! بالله دورها ثم أنقرها وأبصرها .

* * *

وقرعنا الباب ودخلنا الدهليز . فقال :

ـــ عمرك الله يا دار ولا خربك يا جدار . تأمل بالله المعارج ، وتبين

دواخلها وخوارجها ، وسلنى كيف حصلت عليها ، وكم من حيلة احتلت لها . فلقد كان لى جار يكنى أبا سليمان ، يسكن هذه الدار ، وله من المال ما لا يسعه الخزن . فمات رحمه الله وخلف خلفاً أتلف المال بين الخمر والزمر ، وخشيت أن تذهب الدار فيما ذهب . ويفوتنى شراؤها فأتقطع عليها حسرات إلى يوم الممات ، فاحتلت حتى أقرضت صاحب الدار ما لا أحتاج إليه ، وتغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترق فسألته أن يجعل داره رهينة لدى ، ففعل . ثم صبرت عليه إلى أن أفلس وآلت إلى الدار بثمن بخس . وأنا بحمد الله محظوظ . وحسبك يا صاحبى أنى كنت منذ ليال نائماً فى البيت مع من فيه إذ قرع علينا الباب . فقلت : من الطارق ؟.. فإذا امرأة معها عقد لؤلؤ تعرضه للبيع فأخذته منها أخذة خلس واشتريته بثمن زهيد وسيكون له ربح وافر بعون الله تعالى . وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة حظى . والسعادة تنبط الماء من الحجارة . الله أكبر ، لا ينبئك أصدق من نفسك . ثم أنى اشتريت هذا الحصير فى المناداة وقد أخرج من دور آل ثراء ، وكنت أطلب مثله منذ زمن طويل فلا أجد . تأمل بالله دقته ولينه وصنعته ولونه . وإن كنت سمعت بأبى عمران الحصيرى ، فهو عمله وله ابن يخلفه الآن فى حانوته ، لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده ، فبحياتى لا اشتريت الحصر إلا من دكانه . فالمؤمن ناصح لإخوانه. ونعود إلى حديث المضيرة فقد حان وقت الظهر .. يا غلام الطست والماء ..

فقلت :

ـــ الله أكبر ، ربما قرب الفرج .

وتقدم خادمه . فقال :

ـــ ترى هذا الغلام ؟ إنه رومى الأصل ، عراقى النشء . تقدم يا غلام ، وأحسر عن رأسك ، وانض عن ذراعك ، وأقبل وأدبر .

ففعل الخادم ذلك . وقال صاحب الدار :

ـــ بالله سلنى من اشتراه ؟ اشتراه والله أبو معن من النخاس . يا غلام ضع الطست وهات الإبريق .

فوضعه الغلام وأخذه المضيف وقلبه بين يديه وأدار فيه النظر ثم نقره وقال :

ـــ انظر إلى هذا النحاس الأصفر كأنه قطعة من الذهب ، نحاس الشام وصنعة العراق . تأمل حسنه وسلنى متى اشتريته ؟ اشتريته والله عام المجاعة . يا غلام .. الإبريق !

فقدمه . وأخذه رب البيت فقلبه بين يديه وقال :

ـــ أنبوبة منه . لا يصلح هذا الإبريق إلا لهذا الطست ، يا غلام أرسل الماء ، فقد حان وقت الطعام ! بالله ترى هذا الماء ما أصفاه ، أزرق كعين السنور . وكأنه لسان الشمعة فى صفاء الدمعة . وهذا المنديل سلنى عن قصته . فهو نسج جرجان ، وقع إلىّ فاشتريته . فاتخذت امرأتى بعضه سراويل واتخذت بعضه منديلا . دخل فى سراويلها عشرون ذراعاً . وانتزعت انتزاعاً من يدها هذا القدر وأسلمته إلى المطرز حتى صنعه كما تراه وطرزه . فادخرته للظراف من الأضياف أمثالك . يا غلام ، الخوان

والقصاع والطعام ، فقد كثر الكلام .

فأتى العبد بالخوان ، وقلبه صاحب البيت ، ونقره ، وعجمه بأسنانه ، وقال :

ـــ عمر الله بغداد فما أجود متاعها . تأمل بالله هذا الخوان وانظر إلى خفة وزنه وصلابة عوده وحسن شكله .

فقلت له :

ـــ هذا الشكل ، فمتى الأكل ؟

فقال :

ـــ الآن . عجل يا غلام بالأكل ، لكن الخوان قوامه منه ..

فقنطت وقلت فى نفسى :

ـــ قد بقى الخبز وآلاته وصفاته والحنطة من أين اشتراها وكيف اكترى لها حمالًا وفى أى رحى طحن وكيف عجن وخبز ، وبقى الحطب ومتى جلب وكيف صفف وجفف . وبقى الخباز ووصفه والدقيق والخمير وشرحه ، بقى البقل وكيف قطف ونظف ، وبقيت المضيرة كيف اشترى لحمها ووفى شحمها ونصب قدرها ودقت أبزارها حتى أجيد طبخها وعقد مرقها ، وهذا خطب يطم . فقمت .

فقال : « أين تريد يا صاحبى ؟ » .

فقلت : « حاجة أقضيها » .

فقال :

ـــ تريد كنيفا أحسن من مصيف الأمير ويزرى بمقصورة الوزير ، قد

سطح سقفه وفرشت أرضه بالمرمر ، يمشي على أرضه الذباب فيزلق ، وعليه باب من ساج وعاج ، مزدوجين أجمل ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه ؟

فقلت له : « كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف فى الحساب » . وخرجت من الدار وجعلت أعدو ، وهو يتبعني ويصيح بى :

ـــ يا أبا الفرج ... المضيرة !

وظن الصبيان فى الطريق أن المضيرة لقب لى ، فصاحوا صياحه فضجرت ورميت أحدهما بحجر ، فأصاب الحجر عمامة رجل عابر وغاص فى هامته . فأخذت من صفع الناس بما طاب وخبث . وضربت والله حتى نسيت اسمى . ثم حشرت إلى الحبس فأقمت عامين فى ذلك النحس . وخرجت فنذرت ألا آكل مضيرة طول حياتى . فهل أنا فى ذا يا أسيادى وإخوانى ظالم ؟!

وسكت الحلاق . ونظر إلى الجالسين يمنة ويسرة فوجدهم ينفخون ويتلمظون لا من الجوع ، بل من الغيظ . ولم يجدوا كلاما يقولونه له .

ولم ير أشعب جوابا يجيب به غير الإشارة إلى العبد والصياح فيه قائلا : « علق هذا الحلاق من العقبين ، إلى أن نفرغ من العشاء ! » .

وأرجعوا « المضيرة » ، فعادت إليهم باردة منكمشة كالعجوز الحيزبون ، فأكلوها وقد ذهب رواؤها ومضت لذتها فجعل الكندى يمضع ويقول لأشعب :

ـــ ألم أقل لك : وددت أنك بلغت بهذا الحلاق إلى أن تأتى على نفسا

حيلة شيطانية

لبث أشعب وبنان على هذه الحال أياما ينفقان مما عندهما على طيب الطعام وجيد الشراب ، إلى أن أوشك ما جمعاه أن ينضب ، ولحا شبح الفاقة والجوع يقترب ، فحدثتهما النفس أن يصنعا ههنا ما صنعاه فى عرفات ، ولكن على نسق آخر ، خوفا من سوء العاقبة . فبعث أشعب إلى الجارية « رشا » فحضرت وأعد هو وبنان منزلا فى زقاق العطارين يشرف على السوق . وأوصيا الجارية أن تخطر بقدها المائس أمام المسجد إذا اجتمع الناس لصلاة العصر . فمضت وعلى وجهها خمار أسود تزهر من تحته عيناها كأنهما النجوم فما كادت تسير خطوات حتى سمعت خلفها من يهمس فى أذنها :

قل للمليحة فى الخمار الأسود :
ماذا فعلت بزاهد متعبد ؟
قد كان شمر للصلاة ثيابه
حتى خطرت له بباب المسجد
ردى عليه صلاته وصيامه
لا تقتليه ، بحق دين محمد !

فالتفتت ، فرأت رجلا ليس من أهل البلد نظيف الهيئة ، وقور الطلعة

يحد إليها النظر . فقالت له :

ـ اتبعنى ..

فقال لها : « إن شريطتى الحلال » .

فقالت له :

ـ قبحك الله ، ومن يريدك على حرام ؟

فخجل الرجل . وغلبته نفسه على رأيه فتبعها . ومشيا حتى دخلا الزقاق وبلغا المنزل . وصعدت الجارية درجة وقالت للرجل :

ـ اصعد ..

فصعد .. فقالت له :

ـ إن لى وجها أحسن من العافية ، مع صوت كصوت « ابن سريج » وترنم « معبد » وتيه « ابن عائشة » أجمع لك هذا كله فى بدن واحد بأشقر سليم .

فقال لها :

ـ وما أشقر سليم ؟

فقالت :

ـ بدينار واحد ، يومك . وليلتك . فإذا أقمت جعلت الدينار صداقا وتزويجا صحيحا .

فقال الرجل :

لك ذلك إذا جمع لى ما ذكرت .

فأجلسته فى صدر الدار وخلعت خمارها . ورأى الرجل جمالها ،

فذهب عقله . وقامت الجارية فقال لها :

ـــ إلى أين جعلت فداك !

ـــ ألبس وأتهيأ ..

فصاح الرجل :

ـــ بالله لا تمسى غمرا ولا طيبا ، فحسبك بدلالك وعطرك ..

فابتسمت له ابتسامة أجهزت عليه ، وذهبت ، وجاء الغلام ، فحيا الرجل أجمل تحية ، وأسر له فى أذنه :

ـــ أأخبرتك شريطتها ؟

فقال الرجل :

ـــ لا والله .. ما شريطتها ؟

فقال الخادم :

ـــ لعلها نسيت تخبرك . هى والله أفتك من « عمرو بن معد يكرب » وأشجع من « ربيعة بن مكدم » ولست بواصل إليها حتى تسكر وتغلب على عقلها ، فإذا بلغت ذلك الحال ففيها مطمع .

فقال الرجل :

ـــ ما أهون ذلك وأسهله !

فأردف الخادم :

ـــ ثم شيء آخر ..

ـــ ما هو ؟..

ـــ اعلم أنك لن تصل إليها حتى تتجرد لها وتراك مجردا مقبلا مدبرا .

فقال الرجل :

ـــ وهذا أيضا أفعله .

وتركه الغلام ومضى . وأقبلت الجارية تموج ظرفاً وتميس لطفاً فقالت :

ـــ هلم دينارك !

فأخرج الرجل دينارا نبذه إليها فصفقت فأجابها العبد . فقالت له :

ـــ قل لأبي الحسن وأبي الحسين هلما الساعة .

ومضى قليل . فإذا شيخان خاضبان نبيلان ، هما أشعب وبنان ، قد أقبلا فصعدا . فقصت الجارية عليهما القصة . وغمزت لهما بعينها غمزة خفيفة لم يلحظها الرجل فقام أحدهما فخطب وأجاب الآخر . ودعيا الرجل فأقر بالتزويج وأقرت الجارية . ودعا الشاهدان بالبركة ، ثم نهضا وخرجا واستحيى الرجل أن يحمل المرأة شيئا من المؤونة فأخرج ديناراً آخر دفعه إليها وقال :

ـــ اجعلى هذا لطيبك ..

فقالت له :

ـــ يا أخى . لست ممن يمس طيبا لرجل ، إنما اتطيب لنفس إذا خلوت .

فقال لها :

ـــ فاجعليه إذن لعشائنا الليلة .

قالت :

ـــ أما هذا فنعم ..

ونهضت فأمرت بإصلاح ما يحتاج إليه . ثم عادت قبل المساء ، فدعت بالخوان والنبيذ . فتعشيا وشربا . وأمسكت بالعود واندفعت تغنى :

راحـــوا يصيـــدون الظبـــاء وإننـــى
لأرى تصيـدهـــــا على حـرامـــــا
أعـــــزز على بـــــأن أروع شبهـــا
أو أن تـــــذوق على يــــدى حمامـــا

فكاد الرجل يجن سرورا وطربا . وقال لها :

ـــ جعلت فداك ، من يغنى هذا ؟

قالت :

ـــ اشترك فيه جماعة ، هو لمعبد ، وتغنى به ابن سريج وابن عائشة .

وجعل الرجل يحتال لتدنو منه فتأبى عليه ، ثم غنت بصوت لم يفهمه للشقاء الذى كتب عليه :

كأنى بالمجـــــرد قـــــد علتـــــه
نعـــال القـــوم أو خشـب الســـوارى

فقال لها :

ـــ جعلت فداك ، ما أفهم هذا البيت ، ولا أحسبه مما يتغنى به !

قالت :

ـــ أنا أول من تغنى به .

فقال :

ــ إنما هو بيت عابر لا ثان له ؟

قالت :

ــ معه آخر ليس هذا وقته . هو آخر ما أتغنى به .

فسكت الرجل ، وجعل لا ينازعها فى شىء إجلالا لها ، إلى أن أذنت العشاء ، فوضعت عودها . فقام فصلى العشاء ، وما يدرى كم صلى عجلة وشوقا .

وفرغ من صلاته فأقبل عليها يقول :

ــ تأذنين جعلت فداك فى الدنو منك !

فقالت :

ــ تجرد !

وأشارت إلى ثيابها كأنها تريد أن تتجرد ، فكاد الرجل يشق ثيابه عجلة للخروج منها . فتجرد ، وقام بين يديها ، فقالت له :

ــ امض إلى زاوية البيت ، وأقبل وأدبر ، حتى أراك مقبلا ومدبرا !

وإذا فى زاوية البيت حصير فى الغرفة على الطريق فخطر الرجل عليه . وإذا تحته خرق إلى السوق . وإذا الرجل يجد نفسه فى السوق مجردا عاريا كما ولدته أمه وإذا الشيخان الشاهدان « أشعب وبنان » قد أعدا نعالهما على قفاه ، واستعانا بأهل السوق . فما أبقوا فيه عظما صحيحا . وبينما الرجل يضرب بنعال مخصوفة ولُبيد مشدودة ، إذا صوت تغنى به الجارية من فوق البيت :

ولــو علـــم المجرد مـــا أردنـــا
لحاربنـــا المجـــرد بالصحـــارى

فقال الرجل فى نفسه :

ـــ هذا والله وقت هذا البيت .

أمعن أشعب وبنان فى هذا السبيل بمثل هذه الأساليب ، حتى ضجت الناس وعمت الشكوى . وبلغ الأمر والى المدينة وكان شديد الورع ، صارم الخلق ، عبوس الوجه . فأرسل فى طلب هذين المفسدين ، وأمر بهما للفور فجردا من ثيابهما وضربا ثلاثين سوطاً . وأمر بأموالهما الحرام فضمت إلى بيت المال .

وتحمل أشعب وبنان الضرب . ولكنهما لم يتحملا كارثة ذهاب المال . فصاح أشعب يستأذن على الوالى فأذن له . فبكى بين يديه وتباكى وقال :

ـــ أصلحك الله ! أنجرد من ثيابنا ومن مالنا فى يوم واحد ؟

فقال له الوالى :

ـــ يا عدو الله ! لقد كنتما تجردان الناس من هذا وذاك فى ليلة واحدة .

ورأى أشعب ألا حيلة له مع هذا الوالى إلا أن يضحكه ، فلعله إن ضحك عفا . فجعل يقص عليه طريف النوادر والوالى فى إطراقه وتقطيبه وعبوسه لا يعبر وجهه خيال ابتسامة . وسكت أشعب قانطاً .

فرفع الوالى رأسه وقال له :

ـــ لو أنك حفظت الحديث حفظك هذه النوادر لكان أولى بك .

فقال أشعب : « قد فعلت » .

فقال له الوالى : « أسمعنى ما حفظت من الحديث » .

فتنحنح أشعب ثم قال :

ـــ حدثنى نافع ، عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ قال :

من كان فيه خصلتان كتب عند الله خالصا مخلصا .

فقال له الوالى :

ـــ هذا حديث حسن ، فما هاتان الخصلتان ؟

فحار أشعب وتفكر لحظة ثم قال :

ـــ نسى نافع واحدة .

فقال الوالى : « والأخرى ؟ » .

فقال أشعب :

ـــ والأخرى ... نسيتها أنا .

فلم يجب الوالى ... ولم يزد على أن أمر بأشعب فضرب ثلاثين أخرى ...

* * *

فى العرس

جعل أشعب وبنان يطوفان فى الأسواق متجردين من مالهما وقد أعياهما الجوع وضاقت بهما الحياة . ولم يبق لهما مما سلف ، غير ذكرى تعاود أشعب فى كل ليلة . فيرفع عقيرته صائحا :

شربنا كئوس السعد حتى كأننا
ملوك لهم فى كل ناحية وفر
فلما اعتلت شمس النهار رأيتنا
تخلى الغنى عنا وعاودنا الفقر

وأتعبتهما كثرة المشى ، فقال بنان :

ـــ ما لنا نمشى فى غير حاجة ؟

فقال أشعب :

ـــ صدقت . والله لقد أنسانا العز وصايا أساتذة التطفيل رحمهم الله ، لقد جاء فى بعض نصائحهم الذهبية : « لا تمش إلى موضع لا تمضغ فيه شيئًا » .

فقال بنان :

ـــ لو عرفنا موضع المضغ ...

فأجاب أشعب :

ــ لمشينا إليه دهراً .

وتنهد الرجلان ، ومضيا فى السير ، وإذا الفرج يلوح لهما عن كثب فى هيئة عرس فى طرف المدينة . قد نمت أنواره عن عظم شأنه فصاحا معا صيحة واحدة . وركضا إليه . ولكنهما وجدا دونهما بابا قد أرتج وبوابا وقاحا غليظ الطبع يسب من لا يعرف من القادمين ويدفع بيده فى صدورهم فعلما ألا سبيل إلى الدخول إلا بالحيلة . فانصرف كل منهما يدبر لنفسه أمرا .

وانطلق أشعب من ساعته يسأل عن صاحب العرس إن كان له ولد غائب أو شريك فى سفر ، فعلم أن له ولدًا فى اليمن هو أخ للعروس فأخذ فى الحال ورقة بيضاء فطواها وختمها وليس فى بطنها شيء وجعل العنوان « من الأخ إلى العروس » ثم أقبل متدللا . فقعقع الباب قعقعة شديدة ، فقال له البواب :

ــ من أنت ؟

فقال أشعب :

ــ أنا رسول من عند أخى العروس .

ففتح له الباب ، وتلقاه صاحب البيت فرحاً قائلا له :

ــ كيف فارقت ولدى ؟

فقال أشعب :

ــ بأحسن حال ، وما أقدر أن أكلمك من الجوع !

فأمر صاحب العرس بالطعام فقدم إلى أشعب ، فجعل يأكل ، ولم يطق صاحب الدار انتظارا فقال :

ـــ أما معك رسالة ؟

فقال أشعب :

ـــ نعم ..

ودفع إليه بالورقة فأخذها الرجل فوجد ختمها طريا ، فقال :

ـــ أرى الطين طريا ؟

فأجاب أشعب وفمه منتفخ بالطعام :

ـــ نعم ، وأعجب من هذا أنه ليس فى بطن الرسالة ولا حرف واحد لأن ولدك من العجلة لم يكتب فيه شيئاً .

فنظر إليه صاحب العرس شذراً ، وقال له :

ـــ أطفيلى أنت ؟

فأجاب أشعب وهو يمضغ :

ـــ نعم ، أصلحك الله !

فقال الرجل :

ـــ كل ، لا هناك الله !

* * *

أما بنان فقد حار ماذا يصنع للدخول . ثم تذكر أن فى يده خاتما بقى له من أيام العز . فذهب من فوره إلى بقال فرهنه عنده على عشرة أقداح وجاء إلى باب العرس يصيح :

ــ يا بواب افتح لى !

ــ من أنت ؟

ــ أراك لا تعرفنى .. أنا الذى بعثونى اشترى لهم الأقداح ..

ففتح له البواب ، فدخل بنان فأكل هو أيضا وشرب مع القوم ، حتى فرغ ، فقام وأخذ الأقداح وخرج فردها على البقال واسترد خاتمه .

* * *

لم تكن الحيلة تنقص أشعب وبنان إنما الذى كان ينقصهما هو العلم بموضع الولائم والأعراس فإن دون ذلك البحث الطويل والجهد الكثير ولم يفتح الله عليهما بحل لهذه المعضلة . إلى أن خطر على بال بنان يوما خاطر فقال لصاحبه :

ــ لا يعرف مكان الولائم والأعراس غير غلمان الأزقة والطرق . فإنك لتراهم منتشرين فى كل مكان . ولهم علم بكل شأن . ولعل من بين عيالك من تشرد مثلهم . فأوص الأشد من أولادك أن يأتينا بالأخبار .

وكان الحق فيما قال ، إذ لم يمض يوم حتى جاء ابن أشعب يجرى ، فأخبرهما أنه مر بباب قوم عندهم وليمة . فأسرعوا ثلاثتهم إلى تلك الدار ودخلوا . وإذا صاحب البيت قد وضع سلما ، فكلما رأى شخصا لا يعرفه قال له « اصعد يا أبى » . فصعد بنان وأشعب وابنه ، فوجدوا أنفسهم فى غرفة مفروشة . وتوالى الصعود إلى هذه الغرفة حتى وافى فيها ثلاثة عشر طفيليا ، ثم رفع السلم ، ووضعت الموائد فى أسفل الدار ،

وبقى أشعب ومن معه فى العلو ينظرون متحيرين فقال بعضهم :

ـــ ما مر بنا مثل هذا قط ...

فنظر أشعب إلى الحاضرين مليا وقال :

ـــ يا فتيان ما صناعتكم ؟

فقالوا :

ـــ الطفيلية .

فقال لهم :

ـــ ما عندكم فى هذا الأمر الذى وقعنا فيه ؟

فأجابوا :

ـــ ما عندنا فيه حيلة !

فقال لهم :

ـــ وإذا احتلت لكم حتى تأكلوا وتنزلوا ، تقرون لى إنى أعلمكم بالتطفيل ؟

فنظروا إليه وقالوا :

ـــ ومن تكون أنت بالله ؟

فقال :

ـــ أنا أشعب !

فقالوا على الفور :

ـــ قد أقررنا لك قبل أن تحتال لنا .

فقام أشعب ، وأطل على صاحب الدار وضيوفه يأكلون ، فصاح به:

ـ يا صاحب البيت !

فرفع الرجل رأسه قائلا :

ـ ما لك ؟

فقال أشعب :

ـ أيهما أحب إليك ، تصعد إلينا بخوان كبير نأكل وننزل ، أو أرمى بنفسى رأسيا من هذا العلو فيخرج من دارك قتيل ويصير عرسك مأتما ؟!

ثم جعل أشعب يجر سراويله ، كأنه يريد أن يعدو ويرمى بنفسه ..

فجعل صاحب الدار يقول :

ـ اصبر ، ويلك ، لا تفعل !

ثم أصعد إليهم خواناً ، انقضوا عليه انقضاض جوارح الطير ..

وجعل ابن أشعب يأكل ، ثم يشرب ، ثم يأكل .. حتى لم يبق شيء يؤكل فقاموا ، وعند ذاك .. انتحى أشعب بابنه ناحية ولطمه هامساً :

ـ لو جعلت مكان كأس الماء الذى شربته لقيمات .

فأجاب الابن على الفور .

ـ إن كأس الماء يوسع محلا للقم .

فتأمل أشعب كلام ابنه لحظة ، ثم صفعه ثانية وقال :

ـ لِم لم تنبهنى إلى ذلك قبل جلوسنا إلى الخوان ؟

* * *

منذ ذلك اليوم جعل نفر من أولئك الطفيليين الثلاثة عشر يختلفون إلى أشعب ، ويجلسون حوله فى طرف من أطراف السوق ، يستمعون إلى

حديثه ويتلقون نصحه ، ولزمه واحد من هؤلاء ملازمة الظل ، وجعل أحياناً يحمل إلى أشعب بعض الطعام ويتلطف له ويترضاه ليأخذ عنه بعض أساليب تلك الصناعة ، وكان يلح عليه إلحاحا ينم عن شدة تعلقه بالتطفيل ، وجاء هذا التلميذ إلى أستاذه ذلك المساء بطبق فيه تمر وقعد بين يديه كما يقعد كل يوم قائلا له :

— انصحنى !

فوضع أشعب الطبق فى حجره وطفق يأكل .. ثم تنحنح وقال :

— إذا دخلت عرسا ، فلا تتلفت تلفت المريب ، وتخير المجالس ، وإن كان العرس كثير الزحام فلتمض ، ولا تنظر فى عيون الناس ، ليظن أهل المرأة ، أنك من أهل الرجل ، ويظن أهل الرجل أنك من أهل المرأة ، فإن كان البواب غليظا وقاحا فتبدأ به وتأمره وتنهاه من غير أن تعنف عليه ولكن بين النصيحة والإدلال ...

وسكت أشعب واشتغل بالتمر ، فقال التلميذ : زدنى .

فقال :

— إذا وجدت الطعام فكل منه أكل من لم يره قط ، وتزود منه زاد من لا يراه أبداً .

— زدنى !

— وإذا دعيت إلى وليمة إن شاء الله ، فإياك ثم إياك أن تتأخر إلى آخر الوقت ، بل استخر الله وكن من السبق وأول من يوافى ، واعلم أنه ليس يجىء فى أول الأوقات إلا جلة الناس وسراتهم ، فقعودك مع مثل هؤلاء

فائدة ، وأنت معهم آمن مطمئن مسرور ، تسمع كل حديث حسن وخبر ظريف ، وأنت ريح البدن واسع الموضع طيب المكان ، فالزم هذه الطبقة لا يزايل سوادك بياضهم فتهلك ، فهؤلاء هم الذين يعرفون حقك ويكرمونك ويجلونك ويحلفون بحياتك وتعرف السرور فى وجوههم ، فصلوات الله على هؤلاء وعلى من ولدهم .

* * *

وقعودك على أول مائدة فيه خصال كثيرة محمودة ، اعلم يا مغفل إنك أول من يغسل يده ، والخوان بين يديك ، وأول القنينة أنت تشربه ، والبقل الجيد يوضع قدامك ، وأول من يتبخر أنت ، ثم أنك تأكل رؤوس القدور ، وكل شيء كثير ، والقدور ملأى ، والماء بارد ، والخباز نشيط ، ورب المنزل فرح مسرور ، وكل شيء من أمرك مستور ، أما إذا تأخرت أو تكاسلت إلى آخر الوقت فقد عطبت وهلكت ، فإنك تصادف الطعام باردا وهو فضلات القدور ، والرقاق بقايا عجين ، فقد استعملوا الجيد ، والماء سخناً ، وصاحب الوليمة ضجرا متبرماً ، ذلك أنه لا يقعد على آخر مائدة إلا ضعفى الجيران ومساكين المكان والقوام ، فإذا قال لهم صاحب الدار : « قوموا ، سارعوا إلى الخوان » نهضوا مزدحمين فانبسطوا فى ميدان المضغ ورفعوا قناع الحشمة وألصقوا الأكتاف بالأكتاف كأنها بنيان مرصوص ، يأكلون ميمنة وميسرة وتدور أيديهم على الخوان شرقيا وغربيا وتسمع للقم فى حلوقهم معمعة ، فإن قدم لهم جداء وحملان فإنما

(أشعب)

يقدم الجدى أضلاعا بلا لحم ، فوقه جلد وحوله « خس » و« هندبا » كأنه كوخ ناطور قد وقع خشبه وبقى القصب قائماً . فماذا يكون حال من يأكل مع هؤلاء ؟ إنه يخرج من العرس وما معه من العرس إلا شم الطعام وتمشيش العظام ...

وسكت أشعب . فقال صاحبه :

— زدنى ..

فقال أشعب :

— وإذا قمت من المائدة وقد تغديت ، فاقعد فى وسط الدار يضربك الهواء ، وادع بالشراب ، فإن أتوك بنبيذ فهو أحب إلى ، رطلا أو رطلين ، ولا تصب فيه ماء ، وإن حلفوا عليك فأدخلوك البيت فلا تقعد فى الصدر فإن القعود فى الصدر قعود مغن أو مخرف ، وإن كان فى البيت فاكهة كثيرة فاجذب منها إليك ، إذ لا تأمن أن تذهب وتبقى أنت بلا شيء ، ولا تكن أنت الساقى ، وكن ذنبا ولا تكن رأسا ، وإن كان فى المجلس مغنية أو جارية حسنة الوجه فاتق الله فى نفسك ولا تولع بواحدة منهما والزم العافية ، وإذا دار النبيذ فى الأقداح فإياك أن تسكر وأن يرى القوم منك زلة أو كلمة غلط فتخرج وقد انهتك سترك عندهم ، فإنك إن خلطت وولعت ومزحت فإنما هو صفع كله وعداوة بين جيرانك . اشرب خمسة أقداح أو ستة أقداح أو سبعة أقداح ولا تسكر ، فإن خشيت على نفسك فقم وأنت صحيح وعقلك معك ، وإنما شرحت لك كل هذا تفصيلا رغبة فى إسداء النصيحة ، فافهم تعلم ، وتعلم

بأدب ، متعك الله بسعة الصدر وطيب الأكل والصبر على المضغ ، إنها دعوة مغفل عنها .

* * *

وسكت أشعب ، وسكت تلميذه ، وإذا جماعة من أصحابهما الطفيليين قد أقبلوا يتصايحون مهللين فعلم أشعب أنها وليمة ، فوثب على قدميه وقام التلميذ لقيامه ، وصاح أشعب فى الجماعة :

ـــ أين ؟

فقالوا :

ـــ اتبعنا ..

فشمر عن ساقيه وقال لهم :

ـــ بل اتبعونى أنتم !

فساروا فى أثره ، ومشى هو على رأسهم ، ينظر إلى السماء ، ويدعو الله قائلا :

ـــ اللهم لا تجعل البواب لكازا فى الصدور ، دفاعا فى الظهور ، طراحا للقلانس ، هب لنا رأفته وبشره وسهل لنا إذنه !

وبلغوا بابا كبيراً قد رش الطريق أمامه وكنس ، فاعتدل أشعب ، وانتفخ فى ثيابه ، وشمخ بأنفه وسار متهاديا متعاليا متباطئا ، ودخل غير ناظر إلى البواب ، فأفسح له البواب غير مجترئ على اعتراضه ، وقد ظن أنه ذو مقام ، وتبعه صبيانه وهم يشيرون إليه ، وينظرون إلى البواب كأنهم يقولون له :

— نحن أصحابه وخلانه .

واستجاب الله دعاء أشعب ، فيسر له الدخول ، وما شعر أن قدميه فى الدار هو وأصحابه حتى أسرع فجلس وأجلسهم حوله ... ودعى بالطعام ، وحضرت الموائد ، وكان كل جماعة على مائدة لكثرة الناس ، ونظر أشعب إلى مائدة شهية توضع أمامهم ، فالتفت إلى أصحابه وقال لهم :

— افتحوا أفواهكم ، وأقيموا أعناقكم ، وأجيدوا اللف ، واشرعوا الأكف ، ولا تمضغوا مضغ المتعللين الشباع المتخمين ، واذكروا سوء المنقلب وخيبة المضطرب !

وشمر عن ساعده ، وإذا تلميذه قد تعلق بكمه قائلا له :

— انصحنى !

فنظر إليه شذراً ، فليس هذا وقت النصائح ، والكلام الساعة يفوت عليه المنفعة ، وأية نصيحة يطلبها هذا أكثر من وجود الطعام ذاته بين يديه ؟ ولكنه عاد فتذكر هدايا صبيه وأطباقه فى أوقات العسر والمحنة فتلطف له وقال :

— انظر إلىّ ولا تخالفنى على كل ما أقول !

وجاءوهم بقصعة عليها « سمذان » ، فقال أشعب لتلميذه :

— كل من الأحمر ، فإن فيه طعمين : طعم السكر ، وطعم الزعفران .

ولم يدعه يأكل غيره ، ثم أتوهم « بالهريسة » فقال أشعب لصبيه :

ــ كل منها لقمة أو لقمتين أو ثلاثا .

فأكل التلميذ القدر الذى أمر به ، ولم يزد ، وجاءوهم « بالزيرباج » الأحمر .

فقال أشعب :

ــ كل لقمة أو لقمتين .

ثم أتوهم بالقلايا اليابسة فقال :

ــ لا تأكل إلا لقمة أو لقمتين ولا تكثر ، وأولع بهذا الخبز اليابس الذى فى القلية !

ثم جاءوهم « بالبقلية » فقال له :

ــ كل لقمة أو لقمتين .

ثم أتوهم بالشواء ، فقال له :

ــ لا تأكل منه شيئاً وأبق نفسك ، فإنا فى كل يوم نصيب الشواء « بدانق » يقوم مقام هذا ويكفيك .

ثم جاءوهم « بالفالوذج » وكان كثيرا شبيها بالصومعة ، فقال لتلميذه :

ــ إيت من تحت حتى ينهار ، وكل وأكثر ، فإنك لا ترى هذا فى كل يوم .

ثم أحضروا لهم « اللوزينج » فقال له :

ــ أزوج وثلّث ، فإن مت فى هذا مت شهيداً !

ثم أتوهم بطبق عليه دجاج مسمن مشوى ، فهوى عليه وأكل منه

اثنتين أو ثلاثا وقال لصاحبه :

— كل ولا تقصر ، فإن قيمة هذه ثلاثة دنانير ، فلا تأكل إلا ما له قيمة !

ولبث أشعب وأصحابه على هذه الحال ، وقد شغلهم أمر بطونهم عن مائدة عظيمة فى ناحية من المكان قد وضعت أمام والى المدينة ، ولم يفطن أشعب إلى وجود الوالى ، ولكن الوالى فطن إليه ، وعرفه ، ولكنه كتم ذلك ، ومال إلى صاحب البيت وقال له :

— من صاحب القلنسوة الطويلة والطيلسان الأخضر !

فقال صاحب الدار :

— أصلح الله الأمير ، هذا رجل يقال له أشعب ، يشهد هذه الولائم دعى أم لم يدع .

فقال الوالى :

— إذا أكل جئنى به .

* * *

وفرغ الناس من الطعام ، ورفعت الموائد ، فأسرع صاحب البيت إلى أشعب وأحضره إلى الوالى ، فلما صار بين يديه ، قال له الوالى :

— هل دعاك أحد إلى هذه الوليمة ؟

فوقع أشعب فى الحيرة وقال :

— لا ، أصلحك الله !

فقال الوالى :

ـ ألا تعلم أن من جاء إلى طعام لم يدع إليه دخل سارقا وأكل حراما ؟

فقال أشعب :

ـ لا والله ما أكلت إلا حلالا .

فنظر إليه الوالى دهشا :

ـ كيف ذلك ؟

فأجاب أشعب :

ـ أليس يقول صاحب الوليمة للخباز : « زد فى كل شىء ؟ » وإذا أراد إن يطعم مائة قدر لمائة وعشرين وهو يقول : « قد يجيئنا من نريد ومن لا نريد !؟ » ، فأنا ممن لا يريد .

فابتسم الوالى وأعجبه الجواب وقال لأشعب .

ـ لقد اقتصصنا منك فيما مضى ، ذلك حق المسلمين ولكن اليوم سلنى حاجتك ؟

فقال أشعب :

ـ أطال الله بقاء الأمير ، حاجتى : تكتب لى منشورا لا يدخل على أحد فى هذه الصناعة إلا ويدى عليه مطلقة .

فضحك الوالى وهمس فى أذن صاحب الوليمة ثم أمر لأشعب بهدية ، وأمر صاحب الوليمة له أيضا بهدية ، فخرج أشعب بأطباق من كل لون ...

* * *

ضيف ثقيل

لبث أشعب أياماً يسير فى الأسواق فى غير شيء ، ينتظر أن يوافيه أحد بخبر عرس أو وليمة وهو ينشد ويغنى :

كل يوم أدور فى عرصة الدار
أشم القتار شم الذباب
فإذا ما رأيت آثار عرس
أو دخان أو دعوة الأصحاب
لم أعرج دون التقحم لا أرهب
سبا أو لكزة البواب

وطال انتظاره ، ووقف على رجل يعمل طبقا من الخيزران فقال له :

ــ أسألك بالله أن توسعه قليلا وأن تزيد فيه طوقاً أو طوقين ..

فرفع الخيزرانى رأسه وقال له :

ــ وما غرضك من ذلك ؟ أتريد أن تشتريه ؟

فقال أشعب :

ــ لا ، ولكن ربما اشتراه شخص يهدى إلىّ فيه شيئاً ذات يوم ...

ثم تركه ومشى . فرأى رجلين يتهامسان ويتساران فى طرف السوق ..

فوقف على مقربة منهما ينظر إليهما ، وإذا تلميذه قد أقبل يقول له :

— لقد بحثت عنك فى مجلسك فى السوق .

فقال له أشعب على عجل : « أوليمة ؟ » .

— لا .. ولكنه الشوق إلى حديثك ..

فأشاح أشعب بوجهه عنه . وعاد إلى النظر فى وجه الرجلين المتهامسين ، حتى افترقا وذهبا . فقال له تلميذه :

— أتعرفهما ؟

فقال أشعب وهو ينصرف خائباً مع صاحبه :

— لا ، ولكنى ما رأيت اثنين يتساران إلا ظننتهما يأمران لى بشىء .

وأطرق أشعب لحظة ، ثم رفع رأسه وقال لصاحبه :

— كأنى بك لا تريد أن أزيدك فى النصح ؟

فنظر إليه تلميذه :

— لماذا ؟

فقال أشعب متخابثاً :

— ذلك إنى أرى أطباقك قد انقطعت .

فقال الرجل :

— ليس عندى الآن ما يهدى .

فقال أشعب :

— أوَليس عندك ما يؤكل ؟

فأجاب الرجل :

— إذا شئت فإن دارى دارك . فأنت ليس منك حشمة .

وقاد الرجل أشعب إلى بيته وأنزله ضيفاً عليه . ودخل على امرأته فأوصاها أن تعد لأشعب عشاء طيباً . وأكل أشعب . ثم نظر فى الدار وقال :

— عجباً ! أرى أنك من استواء الحال على قدر تحمد الله عليه . فما شأنك وصناعة التطفيل ؟

فقال الرجل :

— لقد علقتها ولا طاقة لى بتركها .

فقال أشعب :

— لو أضفتنى عندك أياماً أنصحك ، لما تركتك إلا وقد حذقتها حذقا عظيماً .

* * *

مكث أشعب فى دار الرجل أياماً طويلة حتى ضجر وضجرت امرأته فقالت المرأة لزوجها ذات ليلة :

— يبقى إلى متى ؟

— كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه ؟

فقالت المرأة بعد تفكر :

— أنا أجيئك بالخبر .

فقال زوجها :

— كيف تستطيعين ؟

فقالت :

ــ ألق بيني وبينك شراً ونتحاكم إليه وأجاذبه الحديث .

ونهضا من ساعتهما فتشاجرا وتظاهرا بالغضب والخصومة ، وانطلقت المرأة إلى أشعب تقول له :

ــ بالذى يبارك لك فى ذهابك غداً . أينا أظلم ؟

فقال أشعب :

ــ والذى يبارك لى فى مقامى عندكم شهراً ، ما أعلم !

فأدركت المرأة وأدرك زوجها أن أشعب يطمع فى طول المقام . فسقط فى أيديهما . ولم يعلما ما يصنعان . واغتاظ الرجل وفكر حتى اهتدى إلى حيلة ، فقال لامرأته :

ــ إذا كان غدا فإنى أقول له : « كم ذراعاً تقفز ؟ » فأقفز أنا من العتبة إلى الدار ، فإذا قفز هو فأغلقى خلفه ...

وكان الغد ، فأحكما التدبير ، وجعل الرجل يحتال فى الحديث مع أشعب حتى قال له :

ــ كيف قفزك ؟

فقال أشعب :

ــ جيد .

فقام الرجل لساعته فوثب من داخل منزله إلى خارج الدار أذرعا وقال لأشعب :

ــ ثب !

فنهض أشعب ووثب لا إلى الخارج ، بل إلى داخل الدار ذراعين .

فوجم الرجل ، وقال لأشعب :

ـــ عجباً ! أنا وثبت إلى خارج الدار أذرعاً ، وأنت وثبت إلى داخل الباب ذراعين ؟!

فقال أشعب من فوره :

ـــ ذراعين إلى داخل خير من أربعة إلى « برا » !

* * *

انفض الناس عن أشعب آخر الأمر ، وهرب منه تلاميذه ومريدوه فقد أيقنوا أنه قد انتهى إلى الوقوع على منازلهم وتطبيق أصول التطفيل على موائدهم ، فلبث أشعب أياماً وحيداً حزيناً لا يجد أنيساً ولا رفيقاً ، ولا يظفر بغداء ولا بعشاء . وخطر على باله صديقه بنان ، ولم يدر أين اختفى . فخرج يبحث عنه حتى قنط من الاهتداء إليه ، فقعد فى أول السوق يفكر فى أمر غده ، وإذا ببنان قد أقبل يحمل قوساً ونشاباً ويجر كلباً ، فما رآه أشعب حتى صاح به :

ـــ أين كنت ؟ أخزاك الله !

فقال بنان :

ـــ فى الصيد . خيبك الله !

ـــ الصيد !

ـــ نعم ، صيد الطير والظباء . إنه لعمل أجدى عليك من هذا القعود تنتظر ما لا يجىء ، قم معى إلى الرزق الحلال ، تستمتع بالصيد الشهى واللحم الطرى والهواء النقى ...

فنظر أشعب إلى ما فى يد صاحبه وقال :

ـــ وأين لك بالقوس والنشاب ؟

ـــ بعت خاتمى واشتريت كل ما ترى .

ـــ وأنا ماذا أصنع ؟

ـــ اصنع مثل ما صنعت أنا .

ـــ ليس عندى شيء يباع .

ـــ أوَليس عند امرأتك أو عيالك شيء ؟

فنهض أشعب لوقته ، وقال لبنان :

ـــ انتظر ها هنا حتى أعود .

ومشى إلى بيته ، وأشعب لا يذكر بيته إلا يوم تضيق به الدنيا ، فصادف الكندى بالباب ...

فما رآه الكندى حتى خف إليه وعانقه عناق المشتاق وقال له فى صوت العتاب :

ـــ ألا عدتنى وقد كنت مريضاً ؟

فقال أشعب :

ـــ جعلت فداك ، متى مرضت ؟

فقال الكندى :

ـــ بعد أربعين يوما من تاريخ اليوم الذى أهديتك فيه القميص ..

فقال أشعب وهو يحسب عدد الأيام فى نفسه :

ـــ بعد أربعين يوما من تاريخ البعثة بالقميص ! أى منذ متى ع'

التحقيق ؟ إن هذا التاريخ والله ولا التاريخ القبطى !

ثم ترك الحساب والتفت إلى الكندى قائلا :

ــ الحمد لله على كل حال .. إذ رأيتك وقد رد الله إليك العافية .

ورأى أشعب أن ينتفع بهذا الشوق والود . وحدثته نفسه إن يفضى إلى الكندى بما جاء له . فجلس إلى جواره وتنحنح وقال :

ــ لى إليك حاجة .

فقال الكندى على عجل :

ــ ولى إليك أنا أيضا حاجة .

فقال أشعب واجماً :

ــ وما حاجتك ؟

فقال الكندى :

ــ لست أذكرها لك حتى تضمن لى قضاءها .

فقال أشعب :

ــ نعم .

ــ حاجتى أن لا تسألنى هذه الحاجة .

فقال أشعب :

ــ إنك لا تدرى ما هى .

ــ بلى . قد دريت .

ــ فما هى ؟

فقال الكندى :

ـــ هى حاجة ، وليس يكون الشيء حاجة إلا وهى تخرج إلى شيء من الكلفة .

فقال أشعب متخابثاً :

ـــ هذا حق . ولكن ... أنت خير من يتكلف لى . وقد جئتك أسألك أن تسلفنى وتؤخرنى ...

فقال الكندى :

ـــ هاتان حاجتان .

فقال أشعب :

ـــ نعم .

فقال الكندى :

ـــ وإذا قضيت لك إحداهما ؟

فقال أشعب من فوره :

ـــ رضيت .

فقال الكندى :

ـــ أنا أؤخرك ما شئت ولا أسلفك .

فيئس أشعب منه ، ولم ير فى الكلام معه غير إنفاق الوقت فى غير طائل ، فقام يريد الذهاب .

فتفكر الكندى لحظة ثم صاح به :

ـــ والله لا تنصرف خائباً .

فوقف أشعب دهشاً . ومضى الكندى يقول :

ـــ أما الدرهم فأنت تعلم أن ليس من عادتى إخراجه . فهو متى ألقى فى الكيس سكن على اسم الله فلا يهان ولا يذل ولا يزعج . أما إذا شئت فإنى أهدى إليك قربة من عسل الرطب ، جاءتنى هدية من البصرة ، فبعها إن أردت واقض حاجتك !

فعجب أشعب ، ولم يصدق أذنه ، وأنكر ذلك من مذهب الكندى ، ولم يعرف جهة تدبيره ، وهو يعلم أنه إنما يجزع من الإعطاء وهو عدوه . وأما الأخذ فهو ضالته وأمنيته ، وإنه لو أعطى أفاعى سجستان وثعابين مصر وحيات الأهواز لأخذها إذا كان اسم الأخذ واقعا عليها . فكيف يعطيه هذه الهدية التى جاءته بهذا الكرم ؟ وجعل أشعب يحتال عليه ليعرف منه السبب . والكندى يتمنع ويتعسر ، ثم باح بسره آخر الأمر قائلا :

ـــ هذه الهدية التى جاءتنى ، خسائرها أضعاف مكاسبها ، وأخذها عندى من أسباب الإدبار والدمار .

فقال له أشعب :

ـــ لعل أول خسارة احتمال الشكر عليها يرد نظيرها .

فقال الكندى :

ـــ هذا لم يخطر قط على بال .

فقال أشعب :

ـــ هات إذن ما عندك من الأسباب .

فقال الكندى :

ـ أول ذلك كراء الحمال الذى ينقلها إلى البيت ، ثم هى على خطر حتى تصير إلى منزلى ، فإذا صارت إلى المنزل صارت سببا لطليب العصيدة والأرز . فإن بعتها فرارا من هذا ، صيرتمونى شهرة وشنعة ، وإن أنا حسبتها ذهبت فى العصائد وأشباه العصائد ، وجذب ذلك شراء السمن ، ثم جذب السمن غيره ، وإن أنا جعلت هذا العسل نبيذاً ، احتجت إلى كراء القدور وإلى شراء الماء وإلى كراء من يوقد تحته وإلى التفرغ له . فإن وليت ذلك الخادم اسود ثوبها وغرمنا ثمن الأشنان والصابون . وازدادت فى الطمع على قدر الزيادة فى العمل .. فإن تغاضينا وصنعنا النبيذ على رغم ذلك ، وعلم الصديق أو النديم أن عندى نبيذاً دق الباب دق المدل ، فإن حجبناه فبلاء ، وإن أدخلناه فشقاء ، إذ لا بد له من دريهم لحم ومن طسوج نقل وقيراط ريحان ومن أبزار للقدر وحطب للوقود ، وهذا كله غرم ، إن رضيت به فقد شاركت المسرفين ، وفارقت إخوانى من المصلحين ، فإذا صرت كذلك فقد ذهب كسبى من مال غيرى وصار غيرى يكتسب منى . وأنا لو ابتليت بأحدهما لم أقم له ، فكيف إذا ابتليت بأن أعطى ولا آخذ ؟ أعوذ بالله من الخذلان بعد العصمة .

* * *

أخذ أشعب القربة فأعطى نصفها لعياله وحمل النصف الآخر إلى السوق فباعه بما بلغ . وذهب إلى بنان فأخبره الخبر فضحك ، وضحكا . ثم نهضا . وقال بنان لصاحبه :

ـــ هلم نشترى لك قوساً ، فما معك يكفى لشرائها .

فنظر أشعب إلى النقود فى كفه وقال :

ـــ أنا الآن فى أمان من الجوع ليلتين أو ثلاثا أو أربعا .

فقال بنان :

ـــ أتضيع رأس المال فى طعام ليلتين وتقعد بعد ذلك تتضور ؟

فقال أشعب :

ـــ وهل تريد أن أضيع طعاما مضمونا فى يدى بطعام ما زال هائماً فى الخلاء والسماء قد يصاد وقد لا يصاد ؟

واشتد الخلاف بينهما . واحتال بنان حتى أخذ النقود فى يده ، فجذب صاحبه من كمه ومشى به قسراً إلى البائع فاختار له قوسا وضعها فى يده . فأمسك بها أشعب ونظر فيها وهدأ لمنظرها وارتاحت نفسه لحملها ..

فقال للبائع : « كم ثمنها ؟ » .

فقال الرجل : « أقبل ثمنها دينارا » .

فصاح أشعب :

ـــ دينار ! والله لو إنى إذا رميت بها طائراً فى السماء وقع مشويا بين رغيفين ، ما دفعت فيها ديناراً أبداً !

فنظر البائع إلى بنان نظرة المستجير . فتدخل بنان فى الأمر وقال لصاحبه همساً :

ـــ ليس فى الثمن غلو . فلقد اشتريت قوسى هذه بأكثر من دينار !

وذكر بنان أن المال معه ، فلم ينتظر رأى صديقه وأسرع فأعطى البائع الثمن . وجذب ذراع أشعب . وانصرف به ..

لم تمض ساعة حتى كان الصديقان قد خرجا من المدينة وضربا فى الفلوات ، وأوغلا فى الخلاء ... كل يحمل قوسه ونشابه وخلفهما الكلب . وعيونهما شائعة بين الأرض والسماء . يبحثان عن الصيد . ومضى النهار وهما فى مشى وبحث وكد وانتظار ، وإذا الكلب ينبح فجأة وينطلق فى أثر شىء مر أمامهما كالبرق . فنظرا فإذا ظبى قد عن لهما .. فوقفا ، ووقف قلباهما من الفرح والاضطراب . وأمسك كل بقوسه . ورمى بنان الظبى فأخطأه . ورماه أشعب فأخطأه وأصاب الكلب . وهرب الصيد ، ومات الكلب . وجلس الصيادان ، وقد أضناهما التعب والجوع والفجيعة فى ثالثهما ...

محتال ظريف

طال جلوس الصديقين وإطراقهما ، واشتد جوعهما ، فرفع أشعب رأسه وقال لصاحبه :

ـــ قد جربنا صيد الظباء فلنعد إلى صيد الموائد .

ثم نهض ونظر إلى الأفق فوجد نخلا كثيراً فقال :

ـــ أرى قرية قريبة ، هلم إليها .

وأمسك بيد بنان ، وسارا حتى بلغا القرية ، فإذا هما أمام دار قد مات صاحبها ، ونساء القرية يلطمن خدودهن ، ويضربن صدورهن ، ورجالها قد كوى الجزع أفئدتهم ، والميت فى صحن الدار قد سخن ماؤه ليغسل ، وخيطت أثوابه ليكفن . فعلم أشعب وبنان ألا أكل ولا طعام فى مثل هذه القرية الليلة ، وخطر على بال أشعب خاطر ودفعه الجوع إلى الحيلة ، فغمز صاحبه ، ثم تركه وتقدم إلى الميت فجس عرقه وصاح فى الناس :

ـــ يا قوم اتقوا الله لا تدفنوه ، فهو حى ، وإنما عرته بهتة ، وأنا أسلمه إليكم مفتوح العينين بعد يومين !

فقال الناس :

ـــ من أين لك علم ذلك يا هذا ؟

فقال أشعب :

— إن الرجل إذا مات ، برد إسته ، وقد لمست هذا الرجل فعلمت أنه حى .

فتقدم الناس إلى الميت وجعلوا أيديهم فى إسته ، ثم قال بعضهم لبعض :

— الأمر على ما ذكر الرجل ، فافعلوا كما قال ..

وتركوا أشعب يصنع ما يريد ، فقام إلى الميت فنزع ثيابه ثم ألبسه عمامة وعلق عليه تمائم ، وألعقه الزيت وأخلى له الدار ، وقال للناس :

— دعوه ولا تروعوه ! وإن سمعتم له أنيناً فلا تدخلوا عليه !

وخرج أشعب من دار الميت ، وقد شاع الخبر بأن الميت قد ردت إليه الحياة ، فانهالت الهدايا على أشعب وبنان من كل دار ، حتى ورم كيسهما فضة وذهبا ، وامتلأ رحلهما سمنا وجبنا وتمرا . وجهدا فى أن ينتهزا فرصة للهرب فلم يجداها حتى حل الأجل المضروب ، وأقبل الناس على أشعب بعد يومين يستنجزونه الوعد ، فقال لهم :

— هل سمعتم لهذا العليل أنيناً ، أو رابتكم منه حركة ؟

فقالوا :

— لا ..

فقال لهم :

— إن لم يكن قد تحرك بعد أن فارقناه فلم يجىء بعد وقته ، دعوه إلى غد ، فإذا سمعتم صوته فعرفونى لأحتال فى علاجه ، وإصلاح ما فسد من

مزاجه .

فقالوا : لا تؤخر ذلك عن غد !

فقال : « لا » .

وجاء الصباح وانتشر الضوء ، فجاءه الرجال والنساء أفواجا وصاحوا به :

ـــ نحب أن تشفى المريض ، وتدع القال والقيل .

فقال أشعب :

ـــ قوموا بنا إليه !

وذهب معهم إلى الميت ، فأبعد عنه التمائم وقال لهم :

ـــ أنيموه على وجهه !

فأناموه .. فقال لهم :

ـــ أقيموه على رجليه !

فأقاموه .. فقال لهم :

ـــ خلو عن يديه !

ففعلوا ، فسقط الميت رأسياً . ولم يدر أشعب ما يفعل ولا ما يقول ، ولم يزد على أن همس :

ـــ إنه حقيقة ميت !

فسقطت على أشعب النعال ، ولطمته الأكف ، وتناوله القوم بالصفع والضرب ، وصار إذا رفعت عنه يد وقعت عليه أخرى ، ثم تشاغل الناس بتجهيز الميت ، فانسل أشعب وبنان هاربين حتى أتيا قرية

أخرى على شفير واد ، قد جار عليها السيل ، وأهلها مغتمون محزونون من خشية الغرق ، فتقدم بنان وقد حدثته نفسه أن يبز صديقه فى الاحتيال ، فنظر إليه وابتسم ، ثم صاح فى أهل هذه القرية :

ـــ يا قوم ! أنا أكفيكم شر هذا الماء ، وأرد عن هذه القرية ضرره ، فأطيعونى !

فالتفت الناس إلى بنان فى رجاء وقالوا له فى الحال :

ـــ وما أمرك ؟

فقال بنان :

ـــ اذبحوا فى مجرى هذا الماء بقرة صفراء ، وأتونى بجارية جميلة عذراء ، وصلوا خلفى ركعتين لله ، فإن فعلتم ذلك انثنى الماء عنكم إلى هذه الصحراء ، فإن لم ينثن فدمى عليكم حلال !

فقالوا جميعا :

ـــ نفعل ...

وقاموا من ساعتهم فذبحوا البقرة ، وزوجوه الجارية وقام بنان إلى الركعتين يصليهما ، وهو يقول :

ـــ يا قوم ! احفظوا أنفسكم لا يقع منكم سهو فى القيام أو فى الركوع ، فمتى سهونا أو هفونا ذهب عملنا باطلا ، واصبروا على الركعتين فمسافتهما طويلة !..

وقام بنان للركعة الأولى فأطال الوقوف حتى كادت تنخلع أضلاع الناس ، وسجد سجدة ظنوا معها أنه قد راح فى سبات ، ولم يجرءوا على

رفع الرؤوس خشية أن يذهب جهدهم فى غير طائل ، إلى أن جاء وقت السجدة الثانية ، فأومأ بنان إلى أشعب ، وانسلا ، فأخذا طريق الوادى ، وتركا أهل القرية ساجدين ، لا يدرى أحد ما صنع الدهر بهم !

* * *

مشى أشعب يحمل الزاد والمال ، ومشى خلفه بنان مع الجارية الحسناء التى زوجوها منه وجعلوا يضربون فى الفلاة على غير هدى ، حتى أشرفوا على الهلاك ، وإذا هم يسمعون صهيل خيل ، فالتفتوا فوجدوا جماعة مسافرين إلى البصرة ، فركبوا معهم ، وقد اطمأنت قلوبهم وأمنوا على أنفسهم وعلى الغنيمة ، وما كادوا يوغلون فى بطن الصحراء ، حتى عن لهم فارس ، جعل ينظر فى القوم ، إلى أن وقع بصره على أشعب ، ورآه وحيدا منفردا بين الجماعة ، فنزل عن فرسه ، وتقدم إليه وقبل قدميه ، فنظر إليه أشعب ، فوجد وجها متهللا ، لفتى أخضر الشارب ، ملآن الساعد ، قوى العضل ، ظريف اللحظ ، لطيف الحديث ، فقال له :

— ما لك ؟!

فقال الشاب :

— أنا عبد بعض الملوك هم بقتلى ، فهمت على وجهى إلى حيث ترانى وأنا عندك ومالى مالك .

فقال أشعب :

ــ بشرى لك وبك !

ورأت الجماعة ذلك ، فغبطت أشعب على هذا العبد وهنأته ، وجعل العبد ينظر فتقتلهم ألحاظه ، وينطق فتفتنهم ألفاظه ، ثم قال :

ــ يا سادة ! إن فى سفح هذا الجبل عيناً ، وقد ركبتم فلاة طويلة ، فخذوا من هنالك الماء !

فلووا أعنة الجياد إلى حيث أشار ، وبلغوا الجبل وقد صهرت الهاجرة الأبدان ، فقال لهم :

ــ ألا تقيلون فى هذا الظل الرحب ، على هذا الماء الزلال ؟

فقالوا : أنت وذاك .

فنزل عن فرسه ، وحل منطقته ، فما استتر عنهم إلا بغلالة تنم على بدنه ، فما شكوا أنه خاصم الولدان ففارق الجنة وهرب من رضوان ، وعمد إلى السروج فحطها وإلى الخيل فحش لها العشب ، وإلى الأمكنة فكنسها ورشها وقد حارت البصائر فيه ووقفت الأبصار عليه ..

فقال له أشعب :

ــ يا فتى ! ما ألطفك فى الخدمة وأحسنك فى الجملة ! كيف أشكر الله على النعمة بك !

فقال :

ــ ما سترونه منى أكثر ، أتعجبكم خفتى فى الخدمة وحسنى فى الجملة ؟ فكيف لو رأيتمونى فى الجد والفروسية ؟ أريكم من حذقى طرفاً لتزدادوا بى شغفاً ؟

فقالوا جميعا :

ــ هات !

فعمد إلى قوس أشعب فأخذها ورمى فى السماء سهماً ، وأتبعه بآخر شق أجواز الفضاء وقال :

ــ سأريكم نوعاً آخر !

ثم عمد إلى كنانة بنان فحملها وإلى أكرم جواد من جياد القوم فامتطاه ، ثم رمى أحد الجماعة بسهم أثبته فى صدره ، وعاجل آخر بسهم طيره من ظهره .

فصاح أشعب :

ــ ويحك ! ما تصنع ؟

فقال الفتى ، وقد تغير صوته :

ــ اسكت يا لكع ! فليشد كل منكم يد رفيقه وإلا اختطفت روحه !

فلم يدر القوم ما يصنعون !.. فخيلهم مربوطة وسروجهم محطوطة وأسلحتهم بعيدة ، وهو راكب وهم على أقدامهم ، والقوس فى يده يرشق بها الظهور ، ورأت الجماعة الجد والعزم فى عين الفتى ، فشد بعضهم بعضاً من الخوف وبقى أشعب وحده لا يجد من يشد يده ، فقال له الفتى :

ــ اخرج بجلدك عن ثيابك ومالك ، لا أم لك !

ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منهم بعد الآخر ، وينزع ثيابه

وكيس ماله وزاده ، حتى جردهم مما يملكون ، وعاد فاعتلى فرسه ولكزه لكزة انطلقت به انطلاق السهم فى كبد الفلاة .

* * *

جزع القوم فقد فقدوا الزاد ، وهم الآن لا يملكون الذهاب ولا الرجوع ، ووقعوا فى حيرة من أمرهم ، فقال قائل إن خير السبل امتطاء خيلهم والإمعان فى السير إلى البصرة وهى من موضعهم.هذا أقرب البلاد إليهم ، فتزودوا من ماء العين ووثبوا إلى أفراسهم ، وظلوا سائرين حتى لاحت لهم قرية فى طرف من أطراف البصرة ، وكان الجوع قد أوشك أن يقتلهم ، فما بلغوا أول دار من دور القرية حتى وثبوا من فوق أفراسهم فوجدوا أنفسهم أمام رجل شيخ قد جلس على باب داره ، فنظر إليهم وقال :

ـــ من أنتم ؟

فقالوا :

ـــ أضياف لم يذوقوا شيئاً يؤكل منذ ليال ثلاث .

فابتسم الرجل وقال :

ـــ اجلسوا !

وسكت طويلًا ، ثم نظر فى وجوههم مليا ، ثم تنهد ، ثم ابتسم ، ثم تنحنح وقال لهم :

ـــ ما رأيكم يا فتيان فى زبدة متوجة بعجوة خيبر الواحدة منها تملأ الفم ، ويوحل فيها الضرس .. عليها لبن قد حلبت من نوق مسمنة ، .

أتشتهونها يا فتيان ؟

فقالوا جميعا :

— إى والله نشتهيها !.. فقهقه الشيخ وقال :

— وعمكم أيضا يشتهيها .

وصمت لحظة ، ثم قال :

— ما رأيكم يا فتيان فى عصيدة من دقيق قد نخل حتى صار كأنه سحالة الذهب ، وسمن عربى بصرى أنضج حتى قال « بق بق بق » ، على حواشيها رقاق ملفوف بلحم قد نعم قطعه ، وفوه بالأبازير ، ومزج بالبصل ، وقلى فى الدهن ، أفتشتهونا يا فتيان ؟

فاشرأب كل منهم إلى وصفه ، وتحلب ريقهم وتلمظوا وتمطقوا ، وقالوا :

— إى والله نشتهيها ، فقهقه الشيخ وقال :

— وعمكم والله لا يبغضها ، وسكت برهة ، ثم قال :

— ما رأيكم يا فتيان فى عنزة من نجد قد أكلت الشيح والقيصوم والهشيم ، حتى ورى مخها ، وكثر شحمها وطاب لحمها ، تنضج لكم من غير امتحاش ، أو إنهاء ، وتقدم إليكم على خوان منضد بالبقل والخبز ، فتوضع بينكم تتساقط عرقاً وتتسايل مرقاً ، أفتستهونها يا فتيان ؟

فقالوا :

— إى والله نشتهيها !

فقال الرجل :

ــ وعمكم والله يرقص لها !

* * *

ولم تطق الجماعة أكثر من ذلك فوثب بعضهم إلى الرجل بالسيف قائلين :

ــ ما يكفى ما بنا من عض الجوع ، حتى تسخر منا .

وقاموا وانفضوا عنه وهم يسبونه ويدعون عليه .. وأسرعوا فى الدخول إلى مدينة البصرة حيث تفرقوا ، وذهب كل لشأنه ، وأخبرت الجارية زوجها « بنان » أن لها أهلاً فى البصرة ، يضيفونهما فانطلق بنان إلى أهلها ، وتركا أشعب وحده ..

مع الخليفة

جلس أشعب على رأس الطريق وحيدًا غريباً فى هذا البلد لا يعرف أحدا فيه ، ولا مال معه ولا زاد ، وقد أضر به الجوع ، فجعل يتنهد ويقول لنفسه :

ـــ لعن الله المال الحرام ! كلما جمعناه ، ذهب عنا سريعاً ، وعدنا شرا مما كنا !

وسمع خلفه جلبة ، فالتفت ، فرأى عشرة رجال مجتمعين ، فصاح :

ـــ إنه الفرج .

ونهض نشيطاً ، وانسل فدخل وسطهم وهو يقول فى نفسه :

ـــ ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة !

ولم يلبث أن جاء من يقود هؤلاء العشرة ويمضى بهم ، حتى انتهوا إلى زورق قد أعد لهم ، فأدخلوا الزورق فقال أشعب لنفسه :

ـــ هى نزهة .

ودخل معهم ، وإذا هو يرى الرجال العشرة قد قيدوا بالحديد ، وقيد هو معهم ، وإذا هو يعلم أن هؤلاء عشرة من الزنادقة ذكروا بالاسم لأمير المؤمنين ، فأمر أن يحملوا إليه ، فجمعوا له ، ولم يلبث أشعب أن وجد الزورق قد وصل إلى بغداد ، وإذا هو يساق ضمن العشرة ، حتى أدخلوا

على أمير المؤمنين فجعل يدعو بأسمائهم رجلا رجلا ، فيأمر بضرب رقابهم ، حتى استوفى العدد وبقى أشعب ، فدهش أمير المؤمنين وقال للموكلين :

— من هذا ؟

فقالوا :

— والله ما ندرى يا أمير المؤمنين ، غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به .

فالتفت أمير المؤمنين إلى أشعب قائلا :

— ما قصتك ؟.. ويلك !

فصاح أشعب :

— يا أمير المؤمنين ! امرأتى طالق إن كنت أعرف من أحوال هؤلاء شيئا ولا مما يدينون الله به ، إنما أنا رجل طفيلى رأيتهم مجتمعين فظننتهم ذاهبين لدعوة .

فقال أمير المؤمنين :

— ليس هذا مما ينجيك منى ، اضربوا عنقه !

فصاح أشعب :

— أصلحك الله ، إن كنت ولا بد فاعلًا فأمر السياف أن يضرب بطنى بالسيف فإنه هو الذى ورطنى هذه الورطة !

فالتفت أمير المؤمنين إلى رجاله وقال :

— يؤدب .

فخرجوا بأشعب وهو ينتفض فى ثيابه رعباً ، وكان وزير الخليفة

قائماً على رأسه ، فلما رأى ذلك لم يستطع كتمان ابتسامة ، وما تمالك أن قال :

— يا أمير المؤمنين هب لى ذنبه ، وأحدثك حديثاً عجيباً عن نفسى وقد عشت مثله حياة التطفيل ليلة !

فاشتاق أمير المؤمنين إلى الحديث وقال :

— قل يا أيها الوزير ..

قال الوزير :

— خرجت يا أمير المؤمنين من عندك ليلة ، فطفت فى سكك بغداد ، فانتهيت إلى موضع ، فشممت روائح أبازير قدور قد فاح طيبها ، فتاقت نفسى إليها ، فوقفت على خياط فقلت :

— لمن هذه الدار ؟

قال :

— لرجل من التجار .

قلت :

— ما اسمه ؟

قال :

— فلان بن فلان .

فنظرت إلى الدار فإذا بشباك فيها مطل ، فرأيت كفاً قد خرجت من الشباك قابضة على عضد ومعصم ، فشغلنى يا أمير المؤمنين حسن الكف والمعصم عن رائحة القدور ، وبقيت باهتاً ساعة ، ثم أدركنى ذهنى

فقلت للخياط :

ــ أهو ممن يشرب ؟

قال :

ــ نعم وأحسب إن عنده الليلة دعوة ، وليس ينادمه إلا تجار عملة مستورون .

فبينما أنا كذلك إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرب ، فقال الخياط :

ــ هؤلاء منادموه .

فقلت :

ــ ما اسماهما ؟.. وما كناهما ؟

قال :

ــ فلان وفلان .

فحركت دابتي وداخلتهما ، وقلت لهما :

ــ جعلت فداكما ، قد استبطأكما أبو فلان أعزه الله .

وسايرتهما حتى بلغا الباب ، فأدخلاني وقدماني ، فدخلنا ، فلما رآني صاحب المنزل لم يشك أني منهما بسبيل ، أو قادم قدمت عليهما من موضع ، فرحب بي وأجلسني في أفضل مكان ، وجيء بالمائدة وعليها خبز نظيف ، وأتينا بتلك الألوان ، فكان طعمها أطيب من ريحها ، فقلت في نفسي :

ــ هذه الألوان قد أكلتها ، وبقي الكف والمعصم كيف أصل إلى

صاحبتهما ؟

ثم رفع الطعام ، وجاءونا بوضوء فتوضأنا ، وصرنا إلى بيت المنادمة فإذا أجمل بيت يا أمير المؤمنين ، وجعل صاحب المنزل يلطف بى ويميل علىّ بالحديث ، والندماء لا يشكون أن ذلك منه على معرفة متقدمة ، حتى إذا شربنا أقداحاً ، خرجت علينا جارية كأنها بان ، تتثنى كالخيزران ، فأقبلت فسلمت غير خجلة ، وثنيت لها وسادة فجلست ، وأتى بالعود فوضع فى حجرها ، فجسته فاستبنت فى جسها حذقها ، ثم اندفعت تغنى :

توهمها طرفى فأصبح خدها
وفيه مكان الوهم من نظرى أثر
وصافحها كفى فآلم كفها
فمن مس كفى فى أناملها عقر

فطربت يا أمير المؤمنين لحسن غنائها ، ثم اندفعت تغنى :

أشرت إليها : هل عرفت مودتى ؟
فردت بطرف العين : إنى على العهد
فحدت عن الإظهار عمدا لسرها
وحادت عن الإظهار أيضا على عمد

فصحت : « يا سلام ! » .. وجاءنى من الطرب ما لا أملك نفسى معه ، ثم اندفعت فغنت الثالث :

ألـيس عجيبـــا أن بيتـــاً يضمنـــى
وإيــاك لا نخلـــو ولا نتكلــــم ؟
سوى أعين تشكـــو الهوى بجفـــونها
وتقطيــع أنفـــاس على النـــار تضرم
إشـــارة أفــــواه وغمـــز حـواجـــب
وتكسيـــر أجفـــان وكـــف يسلـــم

فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذقها ومعرفتها بالغناء ، وإصابتها لمعنى الشعر ، وأنها لم تخرج عن الفن الذى ابتدأت به ، فقلت : « بقى عليك يا جارية .. » . فضربت بعودها الأرض وقالت : « متى كنتم تحضرون مجالسكم البغضاء ! » فندمت على ما كان منى ، ورأيت القوم كأنهم تغيروا لى ، فقلت : « أما عندكم عود غير هذا ؟ » قالوا : « بلى » ، فأحضروا لى عوداً فأصلحت من شأنه ، ثم غنيت :

مـــا للمنـــازل لا يجبـــن حزينـــا
أصممـــن أم قـــدم المـــدى فبلينـــا
راحـــوا العشيـــة روحـــة منكـــورة
إن متـــن متنـــا أو حييـــن حيينـــا

فما أتممته حتى قامت الجارية فأكبت على رجلى تقبلها وقالت :
ـــ معذرة إليك فوالله ما سمعت أحداً يغنى هذا الصوت غناءك !
وقام مولاها وأهل المجلس ففعلوا فعلها ، وطرب القوم والله واستحثوا الشراب ، فشربوا بالكاسات والطاسات ...

ثم اندفعت أغنى :

أبــى الله أن تمســـى ولا تـذكـريننــــى
وقـد سفـحت عينـاى من ذكـرك الدمـا

فــردى مصاب القلــب أنـــت قتلتـــه
ولا تتركيـــــه ذاهــل العقـــل مغرمـــا

إلى الله أشكـــــو بخلهـــا وسماحتـــــى
لها عســـل منـــى وتبـــذل علقمـــا

فطرب القوم حتى خرجوا من عقولهم ، فأمسكت عنهم ساعة حتى تراجعوا ، ثم اندفعت أغنى الثالث :

هــذا محبــك مطـــوى على كمـــده
حـــرى مدامعـــــه تجرى على جسده

لـــه يـــد تســـأل الـــرحمن راحتـــه
مما جنـى ويـــد أخـــرى على كبـــده

فجعلت الجارية تصيح :

ــ هذا هو الغناء والله يا سيدى ، لا ما كنا فيه !

وسكر القوم ، وكان صاحب المنزل حسن الشرب صحيح العقل ، فأمر غلمانه أن يخرجوهم ويحفظوهم إلى منازلهم وخلوت معه .

فلما شربنا أقداحا قال :

ــ يا هذا ، ذهب ما مضى من أيامى ضياعا إذ كنت لا أعرفك ، فمن أنت يا مولاى ؟

ولم يزل يلح حتى أخبرته الخبر ، فقام وقبل رأسى وقال :

ــ وأنا أعجب يا سيدى أن يكون هذا الأدب إلا لمثلك وإنى لى أن أجالس رجال الخلفاء ولا أشعر !

ثم سألنى عن قصتى فأخبرته ، حتى بلغت خبر الكف والمعصم ... فقال للجارية :

ــ قومى فقولى لفلانة تنزل .

ثم لم يزل ينزل لى جواريه واحدة بعد أخرى ، وأنظر إلى كفها ومعصمها وأقول :

ــ ليست هى .

حتى قال : والله ما بقى غير زوجتى وأختى ، ووالله لأنزلتهما إليك .

فعجبت من كرمه وسعة صدره فقلت :

ــ جعلت فداك ، أبدأ بالأخت قبل الزوجة ، فعساها هى !

فبرزت ، فلما رأيت كفها ومعصمها .

قلت : هى هذه !

فأمر غلمانه فمضوا إلى عشرة مشايخ من جلة جيرانه ، فأقبلوا بهم ، وأمر ببدرتين فيهما عشرون ألف درهم ، فقال للمشايخ :

ــ هذه أختى فلانة أشهدكم أنى قد زوجتها من سيدى الوزير ، وأمهرتها عنه عشرين ألفا .

ثم دفع إليها البدرة ، وفرق الأخرى على المشايخ وقال لهم : « انصرفوا » .

ثم قال لى : « يا سيدى ، أمهد لك بعض البيوت فتنام مع أهلك ؟ » .

فاحتشمنى ما رأيت من كرمه ، فقلت :

ـــ بل أحملها إلى منزلى .

قال : « ما شئت » .

فحملتها إلى منزلى ، فوالله يا أمير المؤمنين لقد أتبعها من الجهاز ما ضاق عنه بعض بيوتنا !... » .

عجب أمير المؤمنين لحديث وزيره ، ولتطفيله الظريف تلك الليلة ، فأمر بإحضار أشعب الطفيلى ، فجاء أشعب يتعثر خوفاً ، فابتدره الخليفة قائلا :

ـــ هل لك فى « ثريدة » مغمورة بالزبد ، مشققة باللحم ، تفوح بروائح الأبازير ؟

فقال أشعب :

ـــ وأضرب كم ؟

فكتم أمير المؤمنين ضحكة وقال :

ـــ بل تأكلها من غير ضرب .

فنظر أشعب إلى الخليفة ملياً ثم قال :

ـــ هذا ما لا يكون ، ولكن كم الضرب فأتقدم على بصيرة ؟

فضحك الخليفة ، وضحك الوزير ، ثم التفت الخليفة إلى أشعب قائلا :

ـــ قد علمت أنك ذو بصر بالطعام ، فما تقول فى « اللوزينج » و« الفالوذج » ... أيهما أطيب ؟

فأجاب أشعب :

ـــ يا أمير المؤمنين ، لا أقضى على غائب .

فأمر الخليفة ، فأحضرت مائدة عليها هذان اللونان ، وقال أشعب :

ـــ اقض بينهما الآن .

فانقض أشعب من فرط جوعه على الخوان ، وجعل يأكل من « الفالوذج » ساعة ، ومن « اللوزينج » ساعة وهو ساكت لا ينبس بحرف ، وقد انتفخ فمه بالطعام وازدحم حلقه من الازدراد ، فقال الخليفة :

ـــ قل ... أيهما أطيب ؟

وقال الوزير :

ـــ اقض لأحدهما .

فتردد أشعب وحار بين اللونين ، ثم عاد فأخذ من هذا لقمة ومن ذاك لقمة ، وقال :

ـــ يا أمير المؤمنين ، كلما أردت أن أقضى لأحدهما أدلى الآخر بحجته .

فضحك الخليفة واستظرفه ، وقال له :

ـــ تشهَّ على ... أى لون تريد ؟

فاطمأن أشعب وقال مترنما :

ألا ليت خبــزا قد تسربــل رائبـــاً

وخيـــلا من البرنى فرسانها الزبـــد

فأمر الخليفة أن يحضر له ما اشتهى ، وجعل ينظر إليه وهو يأكل حتى فرغ ، فقال له :

ــ شبعت ؟

فقال أشعب :

ــ نعم أطال الله بقاء أمير المؤمنين .

وتأمل الخليفة ثياب أشعب فلم ترقه ، وقال له :

ــ لست أرى عليك كسوة رائعة !

فلم يجد أشعب ما يقول ، ثم تفكر وقال :

ــ كانت عليَّ أصلحك الله ثياب نظيفة ، غير أنى قبل أن يأتوا بى إلى أمير المؤمنين كانت قد أخذتنى إغفاءة ، فرأيت رؤيا نصفها حق ونصفها باطل .

فقال الخليفة دهشاً :

ــ وكيف ذلك ؟

فقال أشعب :

ــ رأيت إنى أحمل بدرة من ذهب ، فمن شدة ثقلها على كنت أسلح فى ثيابى ، ثم انتبهت ، فإذا أنا بالسلح ... ولا بدرة .

فضحك أمير المؤمنين حتى استند إلى الوسادة وقال :

ــ نحقق لك النصف الآخر ، ولكن أخبرنى قبل ذلك ، من أنت ؟

فقال أشعب :

ـــ من المدينة يا أمير المؤمنين .

فقال الخليفة :

ـــ وكيف وجدوك بالبصرة ؟

وتذكر أشعب كل ما وقع ، فرأى الخير فى أن يوجز فقال :

ـــ خرجت من المدينة للصيد فضللت ، وإذا أنا فى البصرة ...

فنظر أمير المؤمنين إليه ملياً وقال له :

ـــ وهل صدت شيئاً ؟

فتنحنح أشعب وقال كالمخاطب لنفسه :

ـــ صدت الكلب .

فضحك الخليفة ، وأعجبه حديثه ، ولبث يصغى إليه وإلى نوادره ساعات طويلة ، ثم قال له آخر الأمر :

ـــ سل حاجتك !

فقال أشعب :

ـــ كلب صيد أصطاد به .

فقال الخليفة متعجبا ضاحكا :

ـــ قد أمرنا لك بكلب تصطاد به .

فقال أشعب :

ـــ وغلام يقود الكلب .

فقال أمير المؤمنين :

ـ قد أمرنا لك بغلام .

فقال أشعب :

ـ وخادم تطبخ لنا الصيد .

فقال الخليفة :

ـ وأمرنا لك بخادم .

فقال أشعب :

ـ ودار نأوى إليها .

فقال الخليفة :

ـ أمرنا لك بدار .

فقال أشعب :

ـ بقى الآن المعاش .

فقال أمير المؤمنين .

ـ قد أقطعناك ألف « جريب » عامرة ، وألف « جريب » غامرة .

فقال أشعب :

ـ وما الغامرة ؟

فقال الخليفة :

ـ التى لا تعمر .

فقال أشعب من فوره :

ـ فأنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفا من صحارى نجد وفيافى بنى أسد !

فضحك أمير المؤمنين وقال :

ــ يجعلها لك إذن كلها عامرة .

فقال أشعب :

ــ لم يبق الآن إلا شيئان .

فقال الخليفة :

ــ هات ...

فقال أشعب :

ــ أن تقيم معى فى هذه الضياع جارية حسنة الصوت كنت أعلمها الغناء بالمدينة ، يقال لها « رشا » !

ــ وكيف هى ؟

فتنهد أشعب وقال مترنما :

كـأنها أفـرغت فى قشـر لـؤلـؤة
فى كـل جاريـة منها لهـا قمـر

فقال الخليفة :

ــ قد زوجناك منها وأمهرناها عنك عشرين ألف درهم ! تلك واحدة ، فما الأخرى ؟

فقال أشعب :

ــ الأخرى أن تسمح لى يا أمير المؤمنين أن أعتزل صناعة التطفيل ، وأن أستخلف عليها خليفة من بعدى ، وأن أكتب بذلك عهداً إلى صديق لى يدعى بنان ليكون هو منذ اليوم إمام الطفيليين وعريفهم .

فضحك الخليفة وقال :

ـــ وذلك أيضا لك .

ثم دعى بالكاتب والقرطاس ، وقال لأشعب يملى عهده ..

فقال أشعب للكاتب :

ـــ اكتب :

« هذا ما عهد أشعب إلى بنان حين استخلفه على إحياء سنته واستنابه فى حفظ رسومه من التطفيل على أهل المدينة ، وما يتصل بها من أكنافها ، ويجرى معها من سوادها وأطرافها ، وذلك لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة الهضم ، ولما رآه أهلا له من شدة مكانه فى هذه الرفاهية المهملة التى فطن لها ، والرفاعية المطرحة التى أهتدى إليها ، والنعم العائدة على لابسيها بملاذ الطعوم ، ومناعم الجسوم ، متوردا على من اتسعت موارد ماله ، وتفرغت شعب حاله ، وأقدره الله على غرائب المأكولات ، وأظفره ببدائع الطيبات ، آخطا من كل ذلك بنصيب الشريك المناصف وضاربا فيه بسهم الخليط المفاوض ، وهذا عهدى إليه ، وحجتى عليه ، فليكن بأوامره مؤتمرا ولرسومه متبعا إن شاء الله ، وبالله التوفيق وعليه التعويل ، وهو حسبنا جميعا ونعم الوكيل ... » .

وسكت أشعب ونظر فإذا الخليفة ووزيره يتقطعان ضحكاً ، وهدأ الخليفة ، فقال لأشعب :

ـــ هل بقيت لك حاجة لم تقض ؟

فقال أشعب :

— نعم ، حاجة أخيرة .

فقال الخليفة :

— قل ...

فقال أشعب :

— يأذن لى أمير المؤمنين فى تقبيل يده .

فقال الخليفة :

— أما هذه فدعها .

فقال أشعب :

— ما تمنعنى شيئاً أحب إلىّ منها !

وأسرع إلى يد أمير المؤمنين فاختطفها اختطاف الجائع للرغيف ، ورفعها إلى فمه ، وأشبعها لثما وتقبيلًا ..



فهـــرس

رقم الإيداع ٣٦٥٣ / ١٩٩٠

الترقم الدولى 977 - 11 - 0587 - 6





دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٢٧٥ قرشا